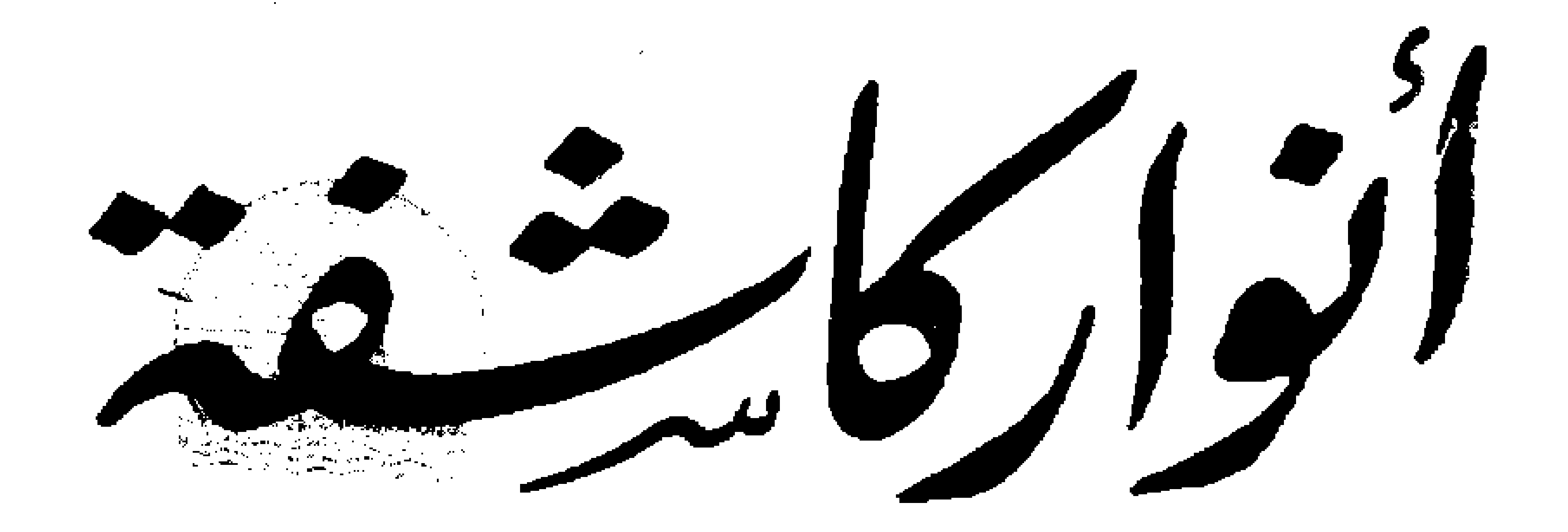
أنوار كاشفة

بعض مشاكل الدين





أنوار كاشفة

بحوث تعالج بعض مشاكل الدين

كتبها لفيف من المفكرين

في بلاد الهند

صدر عن

دار النشر والتأليف

للكنيسة الاسقفية

S. P. C. K.

طبع في مطبعة الانجيل المسيحية

تقديم الكتاب

يشتمل هذا الكتيب على مجموعة فريدة من البحوث الدينية العميقة التي تحير عقول الناس . وقد وضعها باللغة الانكليزية لفيف من كبار المفكرين في بلاد الهند لانارة اذهان الشباب ، وخاصة الطبقة المثقفة . وكان تحليلهم لبعض هذه المشاكل بارعاً ، ممتزجاً بروح العطف وتقدير آراء الآخرين .

وقد قام بترجمتها الى اللغة العربية الاديب بقطر اثناسيوس ، ونشرت خلاصتها أولا في مجلة « الشرق والغرب » . ونزولاً على رغبة حضرات القراء رأينا جمعها في كتاب لفائدة القارئين .

ولنا وطيد الرجاء أن يُقبل القراء من المسيحيين والمسلمين على السواء ، على قراءتها بامعان وترو ، لأن كاتبيها وناشريها يؤمنون بقوة اقتناع العقل ، ايمانهم بقوة إثارة العاطفة . لان الله الذي قال « تحبُ الرب إلهك من كل قلبك » قال أيضاً « من كل فكرك » . والله يهدينا سواء السبيل .

فهرس الكتاب

هل صار الله انساناً ؟

في أعماق قلب كل إنسان مخلص أمين ـ على حدِّ قول الرسول بولس ـ رغبة ملحة تسوقه الى أن يتلمس الله و يطلبه لعلّه يجده ، وان يكن عنه غير بعيد . وتشهد كل المؤلفات ، قديمها وحديثها ، على ان الانسان لن تكمل حياته ما لم يجد الله ، و يعرف مشيئته التي أعدّها له .

وما من شك في أن الانسان كان يطلب الله و يسعى إلى معرفته منذ فجر التاريخ ، بل ربما قبل التاريخ . ولكن يا لخيبة أمل الانسان لو أن الله كان من جانبه غير مكترث ، لا يطلبه ولا يفكر فيه . ذلك لان بشراً لن يقدر أن يزيح بيديه الحجب التي تخفي الله عنا . ولن يقدر انسان أن يصعد الى السموات ليرى مَن هو الله ، وأين يسكن صاحب العزة والجلال .

ومن حسن حظ الانسان أن الله لم يترك نفسه بلا شاهد ، ولكنه أعلن ذاته بطرق شتى. ففي الكون الطبيعي أعلن الله بعض حكمته التي لا يدركها العقل ، و بعض قوته التي لايحدها الفكر ، و بعض محبته التي نراها ماثلة في حسن نظام الكون وجماله الباهر. على أن الله في الواقع أعظم من الاعلان الذي كشف عنه للبشر ، لأن في الطبيعة نرى مظاهر الدمامة والقبح، مختلطة بمظاهر الجمال والحسن ، وهذه فكرة لا يستسيغها الذين خبروا محبه الله وجماله اختباراً صحيحاً حقاً .

ثم على مرّ الزمن اصطفى الله أناساً مختارين من أجناس مختلفة — وخاصة من اليهود — ليعلنوا ذاته اعلانا أوفى واكمل. والله يختار عادة الأمم والافراد لتحقيق أغراض خاصة. ولقد اختار شعب الاغريق ليلقنوا الجنس البشري الفن والفلسفة. واختار الرومان ليعلّموا الناس القانون وفن الحكم. كذلك اصطفى قوماً من الناس ليكونوا مخترعين وشعراء وفنانين. ثم دعا الله اليهود ليعلّموا الجنس البشري أشياء عن الله. وعن طريق عظماء انبياء اليهود الذين أوتوا مواهب ممتازة، أعلن الله ذاته. فهم الذين أذاعوا في الملأ وحدانية الله، ونادوا بانه ليس إله اليهود وحسب، بل إله شعوب الأرض جمعاء. وفوق كل شيء قالوا إنه إله بار، ويفرض البرّ على الناس، ولا يقبل عبادة شكلية يقدمها أناس يجانبون القداسة والطهر في حياتهم العملية يوماً بعد يوم.

تعلّم الانسان كثيراً عن الله من انبياء اليهود، ولكن بيّن أن مثل هذا الاعلان يكون حتماً ناقصاً، بسبب الاداة — أي الخلائق البشرية الخاطئة — التي نقلت هذا الاعلان، إذ كيف يدرك عقل الانسان المحدود، فكر الله غير المحدود؟ انك قد تتعلم شيئاً عن الفنان بدراسة صوره ولوحاته، وقد تتعلم اكثر من اصدقائه وعارفيه، ولكن ما لم تلتقِ بالفنان نفسه، تبقى على جهل من أمره. كذلك ما لم يأتِ الله ذاته، فان الانسان لا يعرف عنه إلا القليل عن طريق الطبيعة والأنبياء الملهَمين. ويحسب بعضهم أنه لا يليق بمجد الله ان يتجسد، حتى لو كان هذا التجسد لخلاص الانسان. ولكن الحق انه من مزايا المحبة أن تتنازل لتقهر، وتنحني لتغلب. وان كان الله محبة، فانه

لابد أن يعلن ذاته. والمحبة الصادقة تنحني وتتنازل، لتنقذ وتخلص. وهي في تنازلها وانحنائها لا تفقد شيئاً من كرامتها وجلالها . ونحن نؤمن حقاً أن الله قد أعلن ذاته، وصفاته الحقة ، في كلمته وابنه، في المسيح ، الذي فيه دون سواه نعرف الله كما هو .

نحن نؤمن بأن الله ، بمحض ارادته التي فاضت محبة ومودة ،قد اخضع ذاته لقيود انسانيتنا لكي يعلن نفسه للبشر اعلاناً كاملا نهائياً. و بهذا الاعلان، و بصيرورته انسانا ، قد صار الله ذاته في طاقة الادراك البشري ، وليس ثمة طريقة أخرى تجعله أدنى إلى أفهام الناس .

نحن نؤمن أننا في المسيح ، نرى الله معلنا بصورة واضحة كاملة بقدر ما نستطيع ، وأن في هذا الاعلان مجالا لمزيد من الفهم والادراك. وقد قال يسوع نفسه: «ان لي أموراً كثيرة أيضا لأقول لكم. ولكن لاتستطيعون أن تحتملوا الآن ». ولن نقدر أن نستوعب كل المعاني التي تضمنها هذا الاعلان في المسيح ، على أننا نستزيد من هذا الفهم جيلا بعد جيل .

و بين الناس قوم يرتضون القول بان يسوع علّم الناس الشيء الكثير عن الله ، وأن الله قد حلّ فيه كما يحلّ في جميع القديسين وأخيار الناس . ولعلّ هؤلاء يسلّمون راضين بأن الله قد حلّ في يسوع بطريقة خاصة أوفى وأكمل ، وانه كان من المقربين على سواه . ولكنهم يأبون التسليم بامكانية تجسد الله ، لان هذا في عرفهم وصمة لله. على أن هذه الفكرة مستمدة من آراء خاطئة عن الله والانسان. وحقيقة الأمر أن ثمة علاقة بين الله والانسان، ذلك لان الانسان خلق على صورة الله (تك ١ : ٢٧) . فمن السائغ أن يحلّ

الله في الانسان ، والاخيار الصالحون يسلّمون بان الله يحلّ في بعض الناس حتى في هذا العصر . وليس ثمة ما يحول دون تجسد الله في جسد بشري ، لكي يعلن ذاته للناس .

وان كان الله قد تجسد في يسوع ،فاننا نحسب هذه الحادثة النقطة المركزية في التاريخ البشري ، إذ قد اكملت كلّ ما سبقها من احداث ، وكل أديان البشر وفلسفتهم ، وكل العقائد والثقافات القديمة ، وكل اشواق القلب البشري الملحّة ، بل كل النبوات اليهودية التي تقدمتها . وما تاريخ البشرية السابق إلا تمهيداً لمجيء المسيح . « لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه » (غلا ٤:٤). وعلى هذا المثال عينه نحسب كل أحداث المستقبل المجهولة ، وكل تاريخ الانسانية في عصورها اللاحقة،انما هو كشف تدريجي للمعاني العميقة والثروة الروحية اللانهائية التي لنا في المسيح ، لان « سرّ » المشيئة الالهية هو أن « يجمع كل شيء في المسيح » (افسس ١ : ٩ و ١٠).

والآن لنبحث الاسباب التي تحملنا على الايمان بان الله قد تجسد في يسوع المسيح :

١ — ان التجسد جدير بالله ، ذلك لانه يمثل أبعد مدى تذهب اليه المحبة . فان هذا هو الحد النهائي للتنازل الاختياري والتواضع العظيم ، « إذ كان في صورة الله — أي الله فعلاً — لم يحسب خلسة أن يكون معادلا لله—أي لم يحسب مساواته لله غنيمة يحتفظ بها لنفسه — لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد ، صائراً في شبه الناس . وإذ وجد في الهيئة كانسان وضع نفسه ، وأطاع حتى الموت موت الصليب » . (فيلبي ٢ : ٥ — ٨) .

ارأيت إلى ملك عظيم خطير الشأن ، تثور فيه نفسه بما انتهى إلى سمعه من شقوة عبيده فيتنازل عن عرشه مختاراً . ولـكي يسعف ادنى طبقة من رعاياه وا كثرهم آلاماً ، يتنازل ليعيش بينهم كواحد منهم ، آخذاً على نفسه نصيبهم القاسي في الحياة . ثم ضاعف هذا التشبيه مليون مرة ، لترى امامك صورة باهتة المحبة الالهية التي تمثلت في التجسد. ومثل هذا التنازل العظيم ، المحب ، الودود ، جدير بملك الملوك . والله أعظم من ملـكنا وحاكمنا ، لانه أبونا كلنا . لذلك كان التجسد جديراً بإله كامل المحبة .

٢ — ان التجسد هو الذروة ، هو المدى الاقصى ، لـكل ما أعلنه الله للبشرية ، في الطبيعة ، وعن طريق رسله وانبيائه . فالله قد اعلن ذاته للانسان أولا في الطبيعة وعجائب صنعه ، ثم عن طريق انبيائه ورسله ، واخيراً اعلن ذاته اعلاناً كاملا نهائياً كانسان في المسيح . من ثمّ يكون الله قد أعلن ذاته أولا قوة وحكمة ، ثم براً وطهراً ، واخيراً محبة .

٣ — ثم ان التجسد يهيء لنا قوة نفهم بها صعاب الحياة ومشكلاتها . ولنفكر في اثنتين فقط من هذا الصعاب : أولاهما أننا نحسُّ كلنا بان طبيعتنا البشرية ناقصة ، ونحس بقوى من الذكاء عجيبة ترفعنا الى ما فوق مستوى الوجود الحيواني المجرد . ومع ذلك فاننا نقصر عن بلوغ الاهداف التي نضعها أمامنا . قد تمتد خيالاتنا وأفكارنا إلى آفاق بعيدة ، ولكنها لا تبلغ اهدافها مطلقاً . وما اكثرّ مافشلنا في تحقيق رغائبنا وميولنا نحو الحياة الأطهر والأنبل والأكمل . حقاً إنّا نحس دائماً بحد أقصى لا نقدر أن نتخطاه . على أننا لا نعرف حيواناً يشعر بمثل هذه القيود ، ذلك لأن الانسان يدرك في أعماق

نفسه أن به عنصراً إلهياً في طبيعته ، وهو يسعى دؤوباً ليكون بينه و بين خالقه صلة ، حتى يبلغ أخيراً الحياة المليئة الخصيبة التي يصبو اليها ، و يقدر على بلوغها . و يزودنا التجسد بأكبر اليقين وأقوى الدليل على أن الصلة بالله في متناولنا . وعن طريق الصلة بالمسيح البشري ، الذي هو إلهي أيضاً ، تتم صلتنا بالله. ومن ثم يشبع التجسد أعمق حاجات الانسان ، و يؤكد له تحقيق أمانيه التي جاهد في سبيلها طويلاً ، و يكمل ما يحس به في نفسه من نقص طبيعي.

٤ — وسنرى فيما بعد أن التجسد يلقي نوراً على أعمق وأقتم سر في الحياة البشرية وأعني به سر الألم . وان يكن التجسد لا يزيل من الطريق كل العقبات التي تعترض ادراكنا لهذا السر ، فانه يؤكد لنا أن الله ليس مشاهداً من بعيد، يلهو بآلامنا وأوجاعنا، مثل آلهة العالم القديم التي سكنت في ابراجها بعيداً عن الأرض ، لا ترقى اليها أصوات المحزونين ، ولا أنات المتوجعين . انما هو إله يشاطرنا احزاننا البشرية ، و يشاركنا في آلامنا ، و يحمل معنا ثقال حياتنا .

هذه هي الاسباب العامة التي تستند اليها عقيدتنا في التجسد . وهي أسباب قوية غاية القوة . ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا أن الدين المسيحي متأصل في التاريخ . والتجسد الالهي لم يتم ، وما كان له ان يتم ، إلا في زمن معين ومكان معين . فلزام علينا إذاً أن نبحث الادلة التاريخية التي تثبت التجسد . ولن يمكن طبعاً ابراز دليل تاريخي مطلق، يرغم الناس على قبول هذه الحقيقة الالهية . ومثل هذا الدليل يمكن ابرازه لاثبات وجود يسوع على الارض ، ولكن التجسد ذاته يقع في نطاق العالم الخارجي، الذي

لاترقى اليها حواسنا . على أن في وسعنا أن نشير الى أشياء كثيرة لا ترقى اليها حواسنا . ومع ذلك نؤمن بها ايماننا بالأشياء التي نراها ونسمعها . فنؤمن مثلا في الشتاء أن الصيف آت لا ريب فيه ، وان الشمس تشرق في الغداة ، وذلك لأننا مقتنعون بان الطبيعة نظام منسق أدق تنسيق، و إن يكن غير ميسور اثبات هذا التنسيق بالدليل المادي. كذلك نؤمن بمحبة اقربائنا واصدقائنا الاعزاء ، وان يكن هذا أيضا مما لا يسهل اثباته بالدليل .

وكل مانستطيعه في مثل هذه الحالات أن نركن الى اختبارنا أو اختبار الآخرين . ونحن نقبل عادة نتائج الاختبار ، وان تكن في ذاتها وطبيعتها بعيدة عن متناول حواسنا . وقد كان التجسد موضوع ايمان تلاميذ يسوع الأولين ، وكان ايمانهم يستند الى اختبارهم إياه . وفي وسعنا ان نفهم ماهية اختبارهم ، ثم نسائل أنفسنا فيما اذا كان هذا الايمان يبرر موقفنا في ان نحذو حذوهم .

و بيّن انه ليس في طوقنا أن نستعيد في عصرنا الحاضر الجدّة التي امتاز بها اختبارهم البكر ، ولا البهاء النيّر الذي رأوه فيه لأول مرة . ومع ذلك فان الوثائق التي خلفوها مدعمة بالحق والصدق، بحيث نقدر أن نفهم في وضوح معالم هذا الاختبار الاصلية . ولدينا عوضاً عن هذا الاختبار البكر، الذي تذوقه الاتباع الأولون ، تلك الاختبارات الكثيرة المتوافرة التي يعرفها الرسل، والتي نهضت مدى اجيال التاريخ البشري شاهداً قوياً على مدى تأثير حياة المسيح في ملايين الناس، وفي الكنيسة المسيحية ونشاطها الذي لم يفتر ابداً.

والعقيدة الدينية مسئلة شخصية . ومن ثم وجب ان تكون تصرفات

الله مع البشر ذات صبغة شخصية، وأن نكون من النوع الذي يتطلب نابية النداء ، والاستجابة الى دعوة الله. ومع ذلك فان الايمان يجب أن يقوم على العقل و إلا كان مجرد خرافة. ولنبحث الآن الاسباب التاريخية التي تثبت عقيدة التجسد ، ولعله يحسن أن ننسق الادلة على النحو الآتي : —

أولا — تأثير حياة يسوع في التاريخ البشري اللاحق .

ثانياً — تأثير حياته في عقول وأفكار معاصريه .

أولا — ان أقوى دليل على أية حادثة هو أثرها في التاريخ البشري اللاحق . وليت شعري أي دليل نقدمه لاثبات وجود أية شخصية انسانية وعظمتها أقوى من تأثير هذه الشخصية وتعاليمها المنظورة أمام الأعين . وعلى قدر هذا النفوذ ، نحكم على قوة شخصية أي انسان و بعد أثرها في الناس . وهذا الدليل في حياة يسوع أنصع وأوفر ما يكون .

أليس مما يثير الدهش، و يذهل العقول،أن يكون سير التاريخ البشري مدى عشرين قرناً تقريباً ، وزوال العالم القديم ومولد العالم الحديث ، هما الأثر المباشر لحياة وتعاليم قروي يهودي ولد في القرن الأول بعد الميلاد؟ وليست المسئلة أن التلاميذ كانوا أعظم من معلمهم،فانهم اغتبطوا أن يعترفوا بان الفضل الأول لسيدهم فيما كانوا هم عليه.وكانت شخصية يسوع دائماً من وراء الستار، أعظم قوة مبدعة دافعة عرفها التاريخ . ولقد كان من أسباب فخار الرسول بولس ، وهو أحد عظماء التاريخ ، ذلك اللقب الذي اطلقه على نفسه معتزاً فخوراً « عبد يسوع المسيح » . وما فتئت شخصية يسوع حتى اليوم، القوة الملهمة التي تسوق الناس ليظفروا باسمه بأمجد الانتصارات وأرقاها .

ولقد شهد الناس في المسيح رؤيا جديدة عن قيمة الانسان البشري وكرامته . ولن يتضاءل نفوذه على مرّ العصور ، بل سيبقى كما هو ، الخميرة الصالحة التي تخمر الجنس البشري كله . وكل النهضات والحركات التي عرفها التاريخ لتخفيف أسباب الألم والحرمان ومكافحة المساوىء والشرور ، قد استمدت نشأتها وقوتها من نفوذ المسيح في العالم .

وأقوى أثر للمسيح في التاريخ البشري، هو قيام الكنيسة المسيحية واستمرار نشاطها . والكنيسة في الواقع أقدم من كل الوثائق المسطورة عن المسيحية. ومن دواعي الدهش والغرابة أن تبقى حتى اليوم الهيئة التي انشأها المسيح نفسه ناشطة، عاملة، مجاهدة، لتحقيق الاهداف التي وضعها هو. وتزداد دهشتنا حين نفكر في انقسامات الكنيسة التي يؤسف لها ، وفي تباطئها وقصورها عن إدراك مشيئة الله في بعض فترات التاريخ . وهل ننسى ان الكنيسة منذ أول عهدها قد اتخذت يوم الاحد ، يوم راحة وعبادة ، بدلا من السبت اليهودي الذي كان قد ساخ من العمر ١٥٠٠ عام .

ولا شك أن حادثة تاريخية جبارة هي التي دفعت القوم الى استبدال يوم راحتهم وعبادتهم من اليوم السابع في الاسبوع لى اليوم الاول منه. ولن يمكن لهيئة بشرية أن تقاوم الأعاصير والهجمات القاسية التي حاولت زعزعت كيانها من الداخل ومن الخارج مدى عشرين قرنا إلا إذا كانت ممسكة بيد الله ، وقوة القدير تسندها وتعضدها .

ثانيا ــ وقد كان تأثير يسوع في تلاميذه ورسله الأولين عجيبا حقا . فيقول عنه بولس الرسول: «الذي نزل هو الذي صعد أيضا فوق جميع السموات

لكي يملأ الكل » (افسس ٤ : ١٠) . وهو « صورة الله غير المنظورة بكر كل خليقة. فان فيه خلق الكل ، ما في السموات وما على الارض ، ما يرى وما لا يرى ، سواء كان عروشا أم سيادات أم رياسات أم سلاطين . الكل به وله قد خلق . الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل. وهو رأس الجسد الكنيسة الذي هو البداءة بكر من الأموات ، لكي يكون هو متقدما في كل شيء » . (كولوسي ١ : ١٥ — ١٨)

ويقول بطرس الرسول ايضا « يسوع المسيح . . . في يمين الله ، إذ قد مضى الى السماء وملائكة وسلاطين وقوات مخضعة له » . (١ بط ٣ : ٢٢) .

ولقد أحس هؤلاء الكتاب وسائر تلاميذ المسيح أن يسوع الذي ارتفع فوق جميع السموات مايزال قريباً منهم، تربطهم به صلة روحية قوية، فيقول بولس: « أحيا، لا أنا ، بل المسيح يحيا في » (غلا ٢ : ٢٠) .

وتقول رواية الانجيل الكريم ان الله نفسه اعلن يوم معمودية يسوع بصوت مسموع « هذا هو إبني الحبيب الذي به سررت ». وفي التجلي شهد الله قائلاً « هذا هو ابني الحبيب له اسمعوا » (لو ٩ : ٣٥). وقال يسوع في تعاليمه « من رآني فقد رأى الآب » (يو ١٤ :٩) وأيضاً « أنا هو الطريق والحق والحياة . لا يأتي أحد الى الآب إلا بي » (يو ١٤ : ٦) .

ولقد علّم يسوع تلاميذه بأن يضعوا فيه كل ثقتهم وايمانهم ، ولم يدّع انسان غيره مثل هذا لنفسه ، ولم يطلب زعيم من أتباعه أن يولوه مثل هذه الثقة المطلقة : « تعالوا إليّ أيها المتعبين والثقيلي الاحمال وأنا اريحكم » (متى ١١ :٢٨) ولما سأله رئيس الكهنة يوم محاكمته ان كان هو ابن المبارك (الله)،

أجاب يسوع بدون تردد « أنا هو » (متى ١٤:٦٢) . وهذا معادل للاسم العبراني الذي أطلق على الله « يهوه ». وقد حسب زعماء اليهود هذا الادعاء تجديفاً ، فحكموا عليه بالموت .

ولما جاء يسوع الى العالم ، أخلى مجده . و بقوة قدرته الالهية حدّ من خواصه الالهية لـكي يستطيع أن يصير انساناً .

ولقد أحسّ يسوع ، بما لم يحس به انسان آخر ، من الجهد والعناء في توجيه ارادته دائماً نحو القداسة ، ذلك لأنه كلما صفت النفس وتقدست، زاد احساسها ارهافاً ورقة حيال التجارب. وقد كانت التجربة له أمراً مريعاً قاسياً أشد في قسوتها على الآخرين ، لأنه كان معصوماً بلا خطية .

وهو يقدر أن يعطف علينا في تجاربنا لانه جرِّب مثلنا. و يقدر أن يفتدينا من خطايانا لأنه لم يخطىء قط . والخطية تجعل الانسان أقل مرتبة في الانسانية ، و يسوع ليس مثلنا من هذه الوجهة ، فهو بلا خطية ، وهو جدير أن يكون ربنا ومرشدنا .

ويأبى بعض الناس أن يؤمنوا بأن الله قد تجسد في المسيح ، لأنهم يزعمون أن الله أعظم وأرفع من أن يتألم . ولـكن ان كان الله محبة ، فانه خليق به أن يتألم أدبياً وروحياً. ولذلك نقدر أن نرى الله فوق صليب يسوع، كما نراه تماماً في أعمال قوته وجبروته . وليس في الـكون كله موضع تركت فيه المحبة والبر ، كما نراهما في المسيح المصلوب . وفوق الصليب نرى الله حقاً، نراه قد أخلى نفسه وحدّ من قوته بقيود البشرية وعجزها .

كذلك يكون الانسان أكثر انسانية حين يحيا في اتحاد بالله الذي خلق

لأجله . والحياة البشرية الاكمل هي من عمل الله والانسان معاً . وكلما توثق هذا الاتحاد، تكاملت الحياة الانسانية ، ذلك لان الالهي يرفع الانساني إلى ذروة الكمال . وفي يسوع نرى الحياة الانسانية في ملئها وكمالها ، وقد كانت تلك الحياة من عمل الله في الانسان ، والانسان في الله .

وحين يمتلىء الانسان بروح الله بحيث يقدر أن يقول مع بولس « أحيا لا أنا بل المسيح يحيا في . . »، عندئذ يكون انساناً حقاً، ممتازاً على غيره في انسانيته. وكلما ازددنا في القداسة، صرنا اكثر انسانية.وفي الانجيل الكريم نرى يسوع انساناً حقاً كاملاً ، ولم يشك اصدقاؤه واعداؤه على السواء في انسانيته . فهو قد نما في العقل والجسد والنفس (لو ٢ : ٤٠ و ٥٢) ، وجاع وعطش وتعب (متى ٤ : ٢ ومرقس ٤ : ٣٨ و يوحنا ٤ : ٦ و٧) ، وغضب وحزن وتأثر وتعجب (مر ٣ : ٥ و ٦ : ٦ و ١٤ : ٣٣ و ٣٤ ولو ٧ : ٩ و يو ١١ : ٣٣ و ٣٤) ، وصلى وآمن بالله ايماناً حقاً (مر ١ :٣٥ و ١ : ٢٣ ولو ١٢: ٢٨ الخ) وجرّب واختبر تجارب عدم اليقين (مر ١٤ :٣٣ ومتى ٤ الخ) وقهر التجارب وتعبد لله في المجمع . ومع ان حياته كانت كاملة في كل مرحلة من مراحلها ، إلا أنها كانت حياة بشرية .

على أن الذين عرفوا يسوع ، أحسوا بانه كان اكثر من انسان . وقد ادّعى بأنه إلهي، وقد زكّى اللهدعواه بالقيامة. وادعى أن بينه و بين الله علاقة فريدة لا مثيل لها ، و باسمه و بسلطانه نقح ناموس موسى وعمّق معانيه ، وهو الناموس الذي حسبه اليهود مكتوبا بأصبع الله (متى ٥ : ٢) . وقد علّم تلاميذه أن يضعوا فيه ثقة لا حد لها ، ثقة لم يجرؤ انسان أن يطلبها من

أتباعه ومريديه (متى ٧ : ٢٤ الخ) وقد مات بسبب ادعائه بانه المسيح ابن الله . (مر ١٤ : ٦) . وقد اثبتت القيامة عقيدة التلاميذ بانه ابن الله حقاً .

وأطلق عليه التلاميذ اللقب الالهي « ربّ » ، وهو ترجمة « يهوه » الاسم الذي اطلقه اليهود على الله في لغتهم العبرية . وعرف التلاميذ ان قوة يسوع لم تنته بصعوده الى السماء ، بل ظل مخلِّصا حياً . ففي ساعة الموت ، صلى اليه استفانوس الشهيد الاول (اع ٧ : ٥٩) ، واجرى التلاميذ باسمه أعمال الشفاء اسوة بما صنع هو على الارض. (اع ٣ : ١٦ و ٩ : ٣٤) ثم عبدته الكنيسة (١ تيمو ٣ : ١٩) ، وكانت بمثابة جسده وقد امتلأت بحياته (١ كور ١٢ : ١٢ وافسس ٤ : ١٢ الخ). واذاع يوحنا على الملأ «من اعترف أن يسوع هو ابن الله فالله يثبت فيه وهو في الله » (يو ٤ : ١٥)

ونحن نؤمن أن يسوع مات لانه ادعى بانه ابن الله ، ولكنه في اليوم الثالث قام من الاموات ، فزكى الله دعواه هذه. وترى كيف يقيمه الله من الأموات ان كانت دعواه باطلة . ومن السخف أن نعزو إلى يسوع كرامة كانسان صالح طيب، أن كنا ننكره دعواه بانه اكثر من انسان . لانه ان كانت دعواه باطلة ، فلا يكون إنساناً صالحاً ، ولا نحسبه في هذه الحالة إلا مخادعا ضلل الملايين من أخيار الناس. ولكن شكراً لله لأن الحق أبلج، ولدينا شهادة هذه الملايين الكثيرة ، تنطق بان يسوع لم يخدعهم ، بل وهبهم بركات طيبات ، هي غفران الخطايا ، والسلام، والفرح ، ومعرفة الله، ورجاء الحياة فيما وراء القبر .

الثالوث المقدس

موضوع الثالوث المقدس من المواضيع العويصة لعلاقته بوجود الخالق نفسه ، ولا يعتبره من المواضيع البسيطة إلا قلة من المغرورين الجهلاء الذين تهون مشكلته أمام عقليتهم المحدودة الناقصة . ومن السخف ان يزعم انسان انه موضوع يستوعبه نطاق العقل البشري. ولكن مما لاشك فيه ان الانسان يصير تدريجاً — دون أن يحس — مثل الاله الذي يعبده .

قال أحدهم للدليل وهو يزور آثار بلد جديد و يستعرض آلهتها المتعددة: « أرني أمتك وأفراد عشيرتك وأنا كفيل بالكشف لك عن آلهتكم » ، وهو يقصد بذلك ان القوم في أية أمة يكشفون في حياتهم وفي سلوكهم الخاص عن نواحي الخير والشر من الآلهة التي يعبدونها . ومما لا جدال فيه ان الانسان يعكس في حياته ، كما في مرآة ، صورة الاله الذي يعبده . و يستحق منا موضوع الثالوث المقدس دراسة فاحصة ، لان الايمان به يؤثر تأثيراً قوياً في فكرة الانسان عن الله .

كيف يستطيع المخلوق أن يستوعب بادراكه كيان الخالق ووجوده ؟ هذا هو أهم سؤال يعترض تفكيرنا عندما نقف على عتبة دراستنا لهذا الموضوع الدقيق. وهو يذكرنا بصعوبة المهمة التي نواجهها. لنقف هنا لحظة ولنفكر في عظمة تلك المعجزة التي يجب ان نحاول فهمها في تواضع كثير، كما وقف موسى من قبل تجاه العليقة الملتهبة التي لم يكن للهيبها فناء . اننا نحتاج الى الانصات

قليلاً لكي نسمع صوتاً هادئاً يهيب بنا ان الارض التي نقف عليها أرض مقدسة ، لاننا نحاول أن نكشف سراً هو من أخص الاسرار الداخلية لذات الله وطبيعته . ويجب علينا ان نتذكر جيداً ان أنقياء القلب هم وحدهم الذين يعاينون الله .

ان عقيدة الثالوث لم تفرض على العالم المسيحي كنظرية قائمة بذاتها دفعة واحدة ، بل هي نتاج تجارب كثيرة ولدت وعاشت في كنف تلاميذ المسيح الأُول، غذوها بلبان تجاربهم، وتقوّم عودها بوقائع وحقائق معينة ، وتنفست في جو من الظروف الملائمة التي هيأت لها نمواً مطرداً . تلك الحقائق بدون شك كانت جزءاً من اعلان الله ذاته ، ولها من هذه الناحية أهمية خاصة .

ونعلم يقيناً ان تلاميذ المسيح الأول كانوا من اليهود ، تعلموا منذ نعومة اظفارهم أن لا إله غير الله الواحد . وأية فكرة كان يشتم منها رائحة الشرك بالله كانت عند اليهود تجديفاً وكفراً . لم تكن هناك أمة راسخة في التوحيد كأمة اليهود ، ولم تكره أمة مثلما كره اليهود أي ميل يحيد بالانسان عن هذه العقيدة الراسخة في ايمانهم . وعندما بدأ يسوع رسالته وسط الشعب ، كان يؤكد لهم عقيدته في وحدانية الله ، وكان حريصاً على توجيه الانسان نحو الله الواحد أبي البشرية كلها. وقبل قتله بايام قلائل ذكّر اليهود بملخص الوصايا العشر التي أعطاها لهم الله على يد موسى فوق جبل سيناء في قوله لهم « اسمع ياإسرائيل . الرب الهنا رب واحد » (مر ١٢ : ١٩). ولكن عن طريق الاتصال بيسوع اقتنع التلاميذ ان سيدهم كان اكثر من انسان ، فعند معموديته أرسل الله لهم شاهداً على ذلك في قوله « أنت ابني الحبيب

بك سررت » (لو ٣ : ٢٢) . ومرة ثانية عند التجلي تكرر الصوت من السحابة قائلاً « هـذا هو ابني الحبيب له اسمعوا » لوقا ص ٩ : ٣٥ . وفي تعليمه قال لهم : « الذي رآني فقد رأى الآب » يوحنا ١٤ : ٩ . « أنا هو الطريق والحق والحياة . ليس أحد يأتي الى الآب إلاّ بي » يوحنا ١٤ : ٦ « أنا والآب واحد » يوحنا ١٠ : ٣٠

كان يسوع يطلب من تلاميذه ان يولوه نوعاً من الثقة والولاء لا يطلبهما معلم من تلاميذه أو وليّ من تابعيه . اسمعه وهو يقول لهم في ثقة واعتداد بالنفس « تعالوا اليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الاحمال وأنا اريحكم . احملوا نيري عليكم وتعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم » (متى ١١:٢٨ و ٢٩) . وعندما سأله رئيس الكهنة « أأنت المسيح ابن المبارك، قال يسوع أنا هو »(مر ١٤:٦٢) . اعتبر رئيس الكهنة ان كلمة الله أقدس من أن تجري على شفتيه ، وكانت هذه هي عادة اليهود عندما يصلون في حديثهم الى إسم الجلالة. فـ «يهوه» اعتاضوا عنها بكلمة «الرب»، وكانوا عندما يقرأون الأسفار يتجاهلون كلمة «يهوه» كأن لم تكن. عرف يسوع قصد رئيس الكهنة ، كما فهم أيضاً رئيس الكهنة مايعنيه يسوع باجابته ، لأنه سرعان ما مزق ثيابه اعلاناً لما في قول المسيح من تجديف وشرك ، وأردف قائلا « ما حاجتنا بعد إلى شهود . قد سمعتم التجاديف ما رأيكم » . فحكم عليه الجميع بانه مستوجب الموت .

ليس هناك أدنى شك في ان المسيح مات لانه أعلن انه ابن الله . ولو أنه أنكر هذه الدعوة، لأمكنه في هذه الدفعة على الأقل أن يفلت من الموت.

مات على الصليب ليس كما ورد في بشائر الانجيل وحسب ، بل كما يخبرنا بذلك التاريخان اليهودي والروماني . ولكن الصلب لم يكن نهاية يسوع لانه بعد ثلاثة أيام أقامه الله من الاموات، وهو الآن و إلى الابد جالس عن يمين الله. وقيامة المسيح من الاموات تؤيد في وضوح صحة دعوى بنوته لله، و إلا فكيف اقامه الله من الاموات اذا كانت دعواه غير صحيحة . ان الله لا يعضد دعوى باطلة بأية حال من الأحوال .

وكثيرون من الناس مستعدون لان يضعوا المسيح في مرتبة الشرف الأولى ، حاسبين اياه انساناً بلغ غاية الصلاح ، أو رسولاً كبيراً . ولكنهم يرفضون وصفه بانه ابن الله . أمثال هؤلاء هم قوم نبلاء ولكنهم لا يدركون المأزق الذي يضعون فيه انفسهم بسبب هذا الاعتقاد. اذا لم يكن المسيح ابن الله كما أعلن هو عن نفسه، فكيف يمكن أن يكون انساناً صالحاً ؟ لن يكون الا منافقاً أو مضلاً خدع قسما كبيراً من الجنس البشري ، وسبب موت الكثيرين من الأبرياء الذين استشهدوا في سبيل هذه العقيدة على مدى الأجيال . اذا اسقطنا دعوى بنوته لله، لا يمكن ان نتعامى عن الحقيقة الواقعة التي لا بد أن تترتب على ذلك : وهي انه كان اكبر مخادع عرفه التاريخ مستحقاً لنقمة البشرية . فاذا كنا لا نستطيع الاعتراف بانه خدع نفساً بشرية واحدة ، فكيف يمكننا أن نتخلى عن الايمان بانه ابن الله .

هناك ملايين يعترفون بانه نبي— فأية زمرة من الانبياء يمكن ان نحشره فيها اذا كان نبياً بشّر بدعوى كاذبة. يجب ان لا يغرب عن بالنا انه كان يعتبر يوحنا المعمدان، الذي سبقه ليعدّ له الطريق،أفضل من نبي،و يوحنا المعمدان

هو الذي كُتب عنه «ها أنا ارسل امام وجهك ملاكي الذي يهيء طريقك قدامك » (متى ١١ : ١٠) . فاذا كان يسوع نفسه قد حسب يوحنا اكثر من نبي ، فاننا نبخس المسيح قدره لو حسبناه نبياً . لاشك انه أفضل بكثير من يوحنا المعمدان .

ولقد تحدث المسيح ايضاً عن الروح القدس بحسبانه شيئاً مختلفاً عنه ، « أما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته » (يو ١٤:٢٦). « انه خير لكم ان انطلق لانه ان لم انطلق لا يأتيكم المعزي ولكن ان ذهبت ارسله » (يوحنا ١٦:٧) . « وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق » (يو ١٦ : ١٣) .

وفي يوم الخمسين حل الروح القدس بقوة عظيمة ليشهد لحضوره الدائم (اعمال ص ٢) — فبعد أن صلب المسيح جبن تلاميذه واختبأوا داخل أبواب مقفلة . خافوا لئلا يلقاهم المصير عينه ، وجبنوا امام نزوات اليهود وبطش الدولة الرومانية . ولكنهم بعد حلول الروح القدس صاروا يواجهون الجميع برسالة المسيح في عناد و بغير رهبة أو خوف . اعلنوا في جرأة وجسارة ان الرب يسوع هو مسيا اليهود المنتظر وهو رئيس الحياة . بشروا بذلك في كل مكان، بل في نفس المدينة التي صلب فيها يسوع منذ سبعة أسابيع. ولقد تطاولت جرأتهم فوبخوا الرؤساء اليهود على قتلهم المسيح .

شعر التلاميذ انهم ولدوا مرة ثانية ، اصبحوا رجالا جداً واحرزوا روحانية وشخصية قوية . كان الروح القدس في نظرهم شيئاً آخر له ميزة

شخصية . وعندما كانوا يتحدثون عنه ، كانوا مضطرين الى استعمال اللغة اليونانية — اللغة الغالبة في حوض البحر الابيض المتوسط في ذاك الوقت . وكان الروح في التعبير اليوناني مشترك الجنس (neuter gender) ، ولكنهم عرفوا ان الروح القدس الذي حلّ فيهم يوم الخمسين لم يكن شيئاً غامضاً أو تأثيراً مجهولا . ولذلك لم يشيروا اليه بكلمة (it) بل أشاروا اليه بكلمة (he)، وكانوا ينعتونه بصفات التذكير ، وعلى ذلك أشير الى الروح القدس في العهد الجديد كله بكلمة « هو »(يو ١٦ : ١٣). وسرعان ما تحدث التلاميذ عن نعمة الرب يسوع المسيح ، وعن محبة الله ، وشركة الروح القدس (الرسالة الثانية لاهل كورنثوس ص ١٣ : ١٤) وابتدأوا بعد ذلك يعمدون الأمم باسم الآب والابن والروح القدس كما أمرهم ربنا (متى ٢٨ : ١٩) .

عرف التلاميذ ان حياة المسيح كانت إلهية من المعجزات التي صنعها، ومن اختبار قيامته من الأموات . ولكنهم ادركوا ايضاً ان قوة المسيح وحضوره معهم استمرا في حياتهم بعد صعوده الى السماء . و بقوته أمكنهم شفاء المرضى واقامة الموتى (اعمال ٢٠ : ٩ و١٠) . شعروا انه أقرب اليهم من قبل ، لقد وعدهم بان يكون معهم على الدوام ، ولم يشكوا في وعده بأن يكون قريباً منهم . ولكنه حتى بعد أن فارقهم رآه الشهيد الأول قائماً عن يمين الله (اعمال ٧ : ٥٦) . وكان واثقاً بأن يسوع ينتظره في الفردوس . كان يسوع حاضراً في وسطهم على الدوام ، وحضوره الحي هو الذي دفع استفانوس الى الاستشهاد في شجاعة ورباطة جأش أدهشت شاول الذي كان واقفا بجواره. ولا شك انها مسّت اعماقه. وكان لشجاعة استفانوس ورزانته

المنقطعة النظير الفضل الأكبر في اهتداء القديس بولس رسول المسيحية الجسور .

لم يدر بخلد التلاميذ الأول عندما بشرّوا وكتبوا عن الله، الآب والابن والروح القدس ، انهم يثيرون بذلك معضلة فكرية . كانوا يؤمنون في غيرة واخلاص باله واحد ، كما كان يؤمن بذلك سائر اليهود ، وكان الشرك بالله في نظرهم كفراً والحاداً ، ولكن التلاميذ كانوا مقتنعين في قرارة نفوسهم بالوهية الروح القدس والوهية الرب يسوع . عرفوا ذلك ولم يناظروا فيه أو يحاولوا تعليله ، لأن ايمانهم بالآب والابن والروح القدس كان وليد تجاربهم الشخصية الفريدة التي يمكننا أن نتصورها وندركها، ولن نستطيع ممارستها، لأنه لن تكون لنا فرصة للاختبار تماثل فرصتهم الوحيدة في التاريخ المسيحي ، ولكننا نستطيع أن نفيد من اختبارهم ونتتبع خطاهم.

وبعد ذلك بوقت قصير ابتدأ بعض الحمقى يخطئون في التعبير عن عقيدة الكنيسة في هذا الصدد ، فاضطرت الكنيسة الى التعبير عن ايمانها في بيان تقليدي نسميه الآن قانون الايمان ، وهي تقصد بذلك طرد الخطأ وابعاده عن دائرة الايمان المسيحي . وهدفها الأوحد هو التعبير بقدر الامكان ، وعلى قدر سعة الألفاظ للمعنى الذي تحمله ، عن الايمان بطريقة عملية . ولم تكن الكنيسة في عملها هذا جانحة الى تفكير فلسفي، فما كان لديها الفراغ للتفلسف، بل ان كلّ ما كانت تهدف اليه في التعبير عن الايمان المسيحي هو الكشف عن كنوز التجارب التي اختبرتها منذ جاء المسيح الى الارض وعاش وسط البشر . وكم لاقت الكنيسة من الصعوبات في انتقاء الكلمات المناسبة

التي يمكن أن توضح المعنى الذي ترمى اليه ، فابتعدت عن الكلمات الرنانة التي مهما تردد صداها، فلن يمكن أن تكون من الدقة بحيث تفي في شرح طبيعة الله رب الكون ذاته . قد يستطيع الانسان ان يجد حديثاً يفي في بحثه عن علاقاته مع أخيه الانسان ، ولكن أي كلمات يمكن للكنيسة ان تعالج بها التعبير عن علاقة الله الآب بالابن و بالروح القدس. لم يكن مفرٌ من أن تلجأ الى بعض الألفاظ التي لم تكن دائماً تفي بالغرض في المجتمع القديم ، وما زال قوم يماحكون حتى اليوم في استعمال هذه الألفاظ ، لانهم يفكرون فيها على ضوء العلاقات البشرية .وفي سبيل التعبير عن الحقائق السامية الرفيعة قد حاولت الكنيسة أن تستعمل بقدر الامكان لغة الأسفار المقدسة .

عاش الرب يسوع كابن لله، وحدثنا عن ابيه الله، وأشار في احاديثه الى الروح القدس . أعلن الله لنا ذاته في حياة يسوع كخالق وفاد ومخلّص . وهو في اعلانه هذا يشير الى ثلاث خواص للطبيعة الالهية . فلنذكر مرة أخرى العقبات المنيعة التي نلاقيها عندما نبحث عن الكلمات السديدة التي تناسب التعبير عن هذه الخواص ، والتي يمكننا أن نعالج بها موضوعاً دقيقاً غاية في الدقة مثل هذا الموضوع. فان النص مثلاً عن كلمة « أب » و «ابن» نستعيره من علاقات دنيوية موقوتة . ويجب علينا ان نستعمل منتهى الحذر عندما نستخدمه في مجال التعبير عن طبيعة الله ، ربّ الزمن والتاريخ ، الكائن منذ الأزل والى الأبد .

والكلمة « أقنوم » (person) التي نستعين بها في التعبير عن خواص الثالوث الاقدس،قد تزيف لنا المعنى المقصود بما تحمله من معاني الذاتية المنفصلة

ذات الميزات المختلفة . والكنيسة تتوسل بهذه الكلمات « أقنوم » و« أب » « ابن » وغيرها لتصل الى المعنى المقصود، رغم قصور هذه الالفاظ عن تأدية المعنى المراد . ان أنقى اللغات وأرقاها وأدقها في التعبير لن يمكن أن تفي في هذا المجال البعيد عن علاقاتنا الدنيوية المحدودة . وليس معقولاً ان يستطيع الانسان أن يعبر في لغة بشرية عن ملء الله وحقيقته . وفوق كل شيء يجب ألاّ يغيب عن بالنا انه ليس هناك تدرج في وحدة الثالوث ، فالثلاثة أقانيم متساوون في القوة والألوهية أحدهم مع الآخر ، بحيث ان وجود احدهم يعني وجود الاثنين الآخرين في الوقت ذاته ، وفي المجال الذي يعمل فيه أحدهم يعمل أيضاً الاثنان الآخران في الوقت عينه و بالقدرة عينها . انهم مميّزون، أحدهم عن الآخر ، ولكنهم غير متمايزين ولا منفصلين .

ان عقيدة الثالوث الأقدس تقوم على أساس من الحقيقة والواقع، وليس على أساس من التأمل والتفكير . يجب أن ندرك انها، وهي قائمة على أساس اعلان الله لذاته ، تنسجم مع المعقولات البشرية ، ولكن المعقولات البشرية وحدها لن يمكن أن تكشف لنا أو تؤيد هذه العقيدة. على أنه عندما نضعها موضع البحث ، نجدها اكثر معقولية من أية عقيدة أخرى عن الله .

وعلينا أن نسلم بشخصية الله قبل كل شيء . قد يكون الله اكثر من شخصية بكثير ، ولكنه لن يكون أقل من ذات أو شخص . الشخصية هي أسمى الخواص أو الصفات في الانسان . وهكذا الله الذي على صورته صنع الانسان، يجب أن تكون هذه الخاصية السامية من صفاته على الاقل. أما اذا كان الله وحدة مجردة ، كما يعتقد الكثيرون. فلن يمكن أن يكون شخصية بأية

حال . ولكي نكون اشخاصاً يجب أن نفكر، وان نريد، وان نحب. والتفكير يتطلب موضوعاً أو غاية . وقد أدرك ارسطو ذلك لانه اعتقد أن الله يجب أن يفكر في نفسه. ففيمَ كان يتأمل الله قبل الخليقة ؟ يستطيع المسيحي أن يجيب على هذا السؤال بان الله كان يتأمل في أقانيم الثالوث الاقدس الاخرى — لأن اسمى مراتب المعرفة هي معرفة الشخص لذاته ، والله لن يفكر في غير الاسمى

والارادة أيضاً تستلزم غاية أو هدفاً نعمل من أجله، وهي في أسمى مراتبها تُقاس بالنسبة لتأثيرها في ارادة الغير . فكيف يمكن ان يمارس الله ارادته منفصلة عن هدف أو موضوع يعمل من أجله .

واذا كان الله محبة — وهذا الاعتقاد ليس قاصراً على المسيحيين في العالم — فلابد أن يترتب على ذلك انه منذ الأزل كان هناك موضوع لمحبة الله. ولن تكون هناك محبة إلا اذا وجد لها موضوع أو هدف يستقبل موجتها و يردها الى مصدرها . لأن المحبة لن تقوم إلا على أساس من التبادل . فالانسان لن يحب سيارته مثلاً مهما كان مدى تقديره لها أو اعجابه بها . لان السيارة بالطبع لن تبادله المحبة . فاذا كان الله قد صار محبة فقط عند بداية الخليقة فان صفته تكون قد تغيرت . وفكرة كهذه لن تُعقل عن الله ، لأننا اذا عقلناها نكون مهددين في المستقبل بتغيير صفته مرة أخرى . وعلى ذلك فلن تكون لنا فكرة ثابتة عن الله . ان عقيدة الثالوث تساعدنا الى حد كبير على الايمان بمحبة الله منذ الأزل ولقد بذل الله محبته لابنه والروح القدس، وهما ردّاها بدورهما في سخاء يفوق حدود القياس .

وسيظل وجود الله دائماً ، ما دمنا في هذه الحياة ، لغزاً وسراً عظيماً ،

ولا يجوز أن يدهشنا ذلك ، فأي احترام وتقدير نقدمه لإله بلغ من البساطة بحيث يستطيع العقل البشري أن يفهمه ويستوعبه تماماً. لقد أُمرنا، لا أن نفهم، بل ان نعبد وحدانية في ثالوث وثالوثاً في وحدانية .

والحق الصراح ان العقل كلما تماسّ مع الحقيقة شعر بانه مغلوب على أمره امام لغز من الالغاز . فالخط المستقيم الذي عرفه أقليدس لا وجود له على الاطلاق ، انه مجرد نظرية عقلية ، ولذلك لا يلقى صعوبة في فهمه وادراكه. قارن هذا بحياة البعوضة . انها جزء من الحقيقة ولذلك قد تقضي حياتك في دراستها ولا تعرف عنها في النهاية سوى الشيء اليسير . وعلى هـذا القياس نستطيع أن نشرح شخصيات الكتب والتمثيليات ونفهمها تمام الفهم ، بينما نعجز عن فهم أحوال اخوتنا وذوي قرابتنا أو معارفنا ، ونقضي العمر دون أن نفهمهم فهماً كاملاً ، ذلك لان اشخاص الكتب والمؤلفات من صنع العقل وليس لهم وجود حقيقي ، في حين ان معارفنا واصدقاءنا لهم وجود حقيقي .

كلما ارتقينا صعداً في سلم الوجود نصادف تعقيداً اكثر في الحياة . فاصبع الانسان الصغير مركب من ثلاث عقل متصلة في وحدة واحدة . وعلى هذا المنوال نرى الانسان مكوناً من جسم وعقل وروح . واذا اختل واحـد من هذه الثلاثة انتقص ذلك الى حد كبير من كمال المخلوق البشري . فاذا توقف الجسم مثلا عن تأدية وظيفته بسبب الاصابة أو المرض أضحى الانسان مخلوقاً عاجزاً معتلا ، وفقد حيويته ومرحه اللذين طبعهما الله عليه، وجعل منهما موضعاً لفخره ورضاه . واذا اختل عقله أمسى مخبولاً خطراً على المجتمع الذي يعيش في وسطه . واذا مسّ روحه تلف، انحط مستواه البشري واضحى في

مرتبة واحدة مع الوحوش والدواب . أما اذا عمل الجسم والعقل والروح معاً في تناسق واتزان اصبح الانسان كاملاً كما في الرب يسوع ، حيث يتجلى مجد الوحدانية في ثالوث وتمام الثالوث في وحدانية .

لقد عرفنا القليل من نواحي الحياة البشرية، وما زلنا حتى الآن نجهل الكثير عن تلك النواحي . فلا يدهشنا إذن ألا نستطيع فهم الحقيقة كلها عن الله خالق البشرية . اننا نهون من شأن الله عز وجلّ اذا افترضنا انه وحدة واحدة كقطعة من حجر مثلا ، وحتى الحجر لا يفوتنا انه مركب من عدد لا يحصى من الذرات ، هذا علاوة على ان العلم الحديث يؤكد لنا ان في تركيب قلب الذرة شيئاً ليس مادة كله ، بل هو أقرب الى الروح . حتى الجماد اصبحنا نشك في انه جماد مادام العلم الحديث يؤكد لنا أن تركيبه قائم على أساس ليس كله مادياً .

انه لما يستدعي الدهشة حقاً ان نظن ان طبيعة الله التي لا يُسبر غورها، أقل تعقيداً من كياننا نحن الذين ما زلنا نتعلم يوماً بعد يوم شيئاً جديداً عن أسرار شخصياتنا البشرية ، فما أبعد شخصية الله البهية المتألقة دواماً عن الفهم والادراك ! .

اللهم، يامن هو أقدم الأسرار وأعمقها، نجثو امام عرشك العظيم. فارحمنا رحمة واسعة أيها الثالوث الأقدس القديم .

مُلك السماء

من الأقوال المشهورة في كثير من أصقاع العالم أن الأديان جميعاً تتشابه في الجوهر ، وأنه لا يهمّ نوع الدين الذي يختاره المرء . ومما لا شك فيه أن هناك شيئاً مشتركا بين جميع الأديان من ناحية اهتمامها بتنظيم العلاقات بين الانسان والله. ولكن ما عدا هذا،هناك اشياء كثيرة يضعف فيها وجه الشبه. وكلما أمعن الانسان في تمحيصها ودرسها ، يتبين له انها تتناقض وتختلف . و يصف الدكتور «جود» في كتابه « الله والشرّ » ، كيف انه شرع في مرحلة من مراحل حياته دراسة الديانات الرئيسية في العالم،لعله يكشف عن القاعدة المزعومة المشتركة فيها جميعاً،فأعلن دهشته العظيمة وخيبة أمله عندما كشف، أنه علاوة على بعدها عن الاتفاق في الاصول الجوهرية . . . فانها تتعارض الواحدة مع الأخرى تعارضاً صارخاً . والمشابهات الظاهرية سطحية فقط ، أما الخلافات فجوهرية أساسية .

فنحن كمسيحيين نؤكد أن ديانة يسوع المسيح تختلف اختلافاً جوهرياً عن سائر الديانات الأخرى . وليس ممكناً في حدود بحث وجيز شرح هذه الحقيقة شرحاً وافياً من جميع نواحيها . على أننا سنقتصر على ناحية واحدة في ديانتنا . وعلى سبيل التخصيص سنقتصر على تعاليم يسوع المسيح عن ملكوت الله .

والذين قرأوا الانجيل يدركون الى أي حد كان يهتمّ يسوع بملـكوت الله، أو مملـكة السماء. فهم قد قرأوا الانذارات الخطيرة، والـكلمات الرزينة التي كان يوجهها يوحنا المعمدان لشعب اليهود، ليهيئوا الطريق لملـكوت الله: « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت الله». وهم يذكرون انه بهذه الكلمات عينها بدأ المسيح دعوته: « ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملـكوت الله » . والموعظة على الجبل استهلها يسوع بالفكر عينه بقوله: « طوبى للمساكين بالروح . لأن لهم ملـكوت السموات ».والصلاة الربانية التي تهتف بها شفاه البشر في العالم قاطبة والتي أمرنا الرب بتلاوتها، تتضمن هذه الفكرة بعينها « ليأت ملـكوتك . لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض » . وعند ما أرسل المسيح تلاميذه الاثنى عشر المختارين أوصاهم قائلاً: « اكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملـكوت السموات » .

معظم أحاديث المسيح وأقواله المدونة تدور حول فـكرة الملـكوت . ومعظم أمثاله التي كان يعلم بها الشعب تشرح هذا الموضوع، بل ان السبعة أمثال المذكورة في الاصحاح الثالث عشر من بشارة متى، تدور كلها حول ملـكوت الله . وفي النهاية، وقبل الصلب بأيام قليلة، قال يسوع لتلاميذه: « ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم».

بيّن مما تقدم أن ملـكوت الله كان جزءاً أساسياً من تعاليم يسوع المسيح. فماذا كان يعني بملكوت الله، أو بمملـكة السماء » ! . .

في سبيل الاجابة على هـذا السؤال يجب ألا نحاول أن نصف بعبارة جاذبة ما تركه المسيح ذاته دون وصف . فالوصف فيه التحديد، ولما كانت

السموات نفسها لا حدّ لها ، فان ملـكوت السموات لا يمكن الاحاطة به وتحديد صفاته في تخوم الفكر البشري . لقد أضاء المسيح الطريق ، وأنار الأذهان ، ولـكنه لم يحدد الوصف .

إن عبارة « ملـكوت الله » تتحدث عن نفسها ، فنحن ـــ اذا أردنا ـــ نجد فيها البساطة الرفيعة التي توحي الينا أرقى معاني السؤدد والمهابة والعزة، ولـكنها في الوقت عينه يسلس قيادها، فيصبح معناها مفهوماً لأبسط الناس إذا تواضعنا وأعددنا نفوسنا لادراكه. إن ملـكوت الله هو المملـكة التي يحكمها الله ، ونعرفه فيها ملـكا ندين له بالولاء والخضوع . وقبل أن نخطو خطوة أبعد ، لنا وقفة هنا نتأنى فيها قليلا لنتبين معنى ذلك بالنسبة لنا وللعالم أجمع ، حتى يمكننا أن نضرع بحق في صلاتنا اليومية : « ليأت ملـكوتك » .

قد يعترض البعض هنا على أن هذه الفـكرة موجودة في قلب كل ديانة، وانه ليس لدى المسيحية دون غيرها من الديانات ما تتميز به من تعاليم في هذا الصدد . وللمرة الثانية يجب علينا أن نحذر خطر أنصاف الحقائق الذي قد يكون أدهى وأمر من الافتراء والتزييف . لأن الذي نراه طافياً على السطح ، تسقط دعواه لدي التمحيص والفحص .

ومن الحقائق الواضحة أن أية ديانة تسلم بتعدد الآلهة ، لـكل إله اتباعه وأنصاره ، تنكر بطبيعتها السيادة المطلقة لاله واحد. وعلى ذلك فان أية ديانة ما عدا الديانات التوحيدية ، تقاوم فكرة ملكوت الله ولا تستوعبها .

وتختلف الحالة طبعاً في الديانات التي تعرف وتعبد إلهاً واحداً ، ومن الشائق أن الديانات التوحيدية الـكبرى الثلاث في العالم ، وهي اليهودية

والمسيحية والاسلام ، تعلّق أهمية كبرى على سلطان الله وعزته . ولا شك أن هذا كان من أعظم العوامل في تاريخ الحضارة. والعالم اليوم مدين الى حدّ كبير لتأثير هذه الفكرة التي تستوعبها الديانات الثلاث المنتشرة في انحائه ، فكرة جلال الله وعزته. واذا صح ذلك، فما هو الفارق إذن بين تعاليم المسيح في هذا الصدد ، و بين تعاليم الديانتين الأخريين المشار اليهما :

لنبحث أولا تاريخ أقدم هذه الديانات وهي اليهودية : تشترك اليهودية والاسلام في أن جوهر الحق الالهي أُوحي به عن طريق نبي ، هو موسى في اليهودية ومحمد في الاسلام . ولأسباب عملية نجد ما ينطبق على إحدى الديانتين ينطبق على الثانية ، مع بعض التعديلات التي تقتضيها الضرورة . و بالنسبة لأية شريعة يجب أن يكون واضحاً ، انه ليس في الامكان وضع نصوص قاطعة صريحة تعالج كل مجريات حياتنا اليومية وتصرفاتها ، باحداثها المختلفة. وفي الشرائع يعلقون أهمية كبيرة على التقاليد والاحاديث، وخصوصاً التقاليد الأولى المدونة المخطوطات القديمة ، والاحاديث التي يروونها عن أئمة الشريعة. وعلى مرّ الزمن تتعدد تلك التقاليد والاحاديث وتتكاثر و يطول شرحها ، حتى يأتي الوقت الذي يصعب فيه الالمـام بها جميعاً ، ناهيك عن الوقت والجهد اللذين يبذلها المجتهدون في سبيل حفظ هذه التقاليد وشرح تفاصيلها ودقائقها ، وما يحدث من خلاف في التأويل والشرح ، مما تضيع معه معـالم المبادىء الأولى ، وتمسي الحقائق مجرد تقاليد موروثة ، وتبيت الشريعة ذاتها وما تنطوي عليه من حق ، في خطر النسيان والتغافل .

والمثال الفذ في هذا الصدد هو شريعة السبت ، التي أمست لدى اليهود

حملاً لا يطاق، في حين كان المقصود منها أن يكون السبت لهم ترفيهاً وراحة. وكان لزاماً على المسيح أن يحتج على هذا التقليد بالكلام والمثال لينكر هذه المبالغة المضحكة التي وصل اليها القوم في حفظهم السبت: « السبت إنما جعل لأجل الانسان لا الانسان لاجل السبت » . وفي مناسبة أخرى يقول لهم : « قد أبطلتم وصية الله بسبب تقليدكم ». وفي هذا الفكر عينه تذكر الرسول بطرس نفسه عند ما كان يهودياً ، فقال مخاطباً الرسل والمشايخ في مباحثاتهم الكثيرة : « لماذا تحزنون الله بوضع نير على عنق التلاميذ لم يستطع أباؤنا ولا نحن أن نحمله » .

ويجب أن نعلم تماماً أن أي مشرع،عند ما يعلن شريعة جامعة ملزمة ، لا بد أن يقدّر ما في الطبيعة الانسانية من ضعف وهزال.فمثلا هناك مشكلة كبيرة ناشئة عن العلاقات بين الجنسين ، الرجل والمرأة . فالذي نحسبه مثالياً في هذا الصدد ، يبدو بعيد المنال لدى طائفة كبيرة من الناس ، ممن لم يختبروا نعمة الله وحقه .

خذ على سبيل المثال مشكلة الطلاق . فان ما أباحه موسى لكي يضع حداً لشرّ كان فاشياً ، قد ابتعد عن الغرض المثالي ألا وهو الاحتفاظ بزوجة واحدة مدى الحياة.وفي هذا يقول المسيح « ان موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم . ولكن من البدء لم يكن هكذا » . وكانت النتيجة انه حتى من بين اليهود الذين يخافون الله من معلمي الشريعة أنفسهم، ظهرت طائفة وقعت تحت تأثير الدعارة المباحة قانوناً . وأولئك كانوا يحسبون أنفسهم مُثلا للحشمة والتقوى،وكانوا يهنئون أنفسهم بما وصلوا اليه من القداسة

والورع . ولقد أصاب المسيح إذ فضح امرهم ، ونعتهم بالرياء الفاضح الذميم .

واليك مثالا آخر في التجارة المعيبة في حيوانات الذبائح. فان اصحاب السلطان في الهيكل كانوا يفرطون و يغالون في فحص الحيوانات التي كان يحملها الشعب معه من الخارج ، لكي يرغموه على شرائها باسعار باهظة من الحيوانات التي كانوا يجلبونها هم أنفسهم ، و بذلك حوّلوا بيت الله من بيت الصلاة إلى مغارة لصوص . فان صح هذا عن الكهنة أنفسهم ، فماذا يقال عن التجار اليهود من ابناء الشعب؟ لهذا قال عنهم المسيح «انهم يأكلون بيوت الأرامل» . ولطالما احتج انبياء بيت اسرائيل على الظلم الصارخ - الذي كانت تقرّه الشريعة — الواقع على طبقة الفقراء .

وهكذا نجد أنه بينما يكون الناموس «صالحاً أن كان أحدهم يستعمله ناموسياً» — على حد قول بولس الرسول — فانه لا يصلح في ذاته إلا أن يضفي ثوباً من البر المصطنع على هؤلاء الذين تحولت قلوبهم عن الله ، بل انه يغدو بين أيدي السفهاء سلاحاً للجور والطغيان بدلاً من أن يكون مادة للعدل والانصاف . وهكذا نجد للشريعة أو الناموس خاصتين متضادتين ، فذوو الشعور الحساس الذين تستبد بهم رغبة مخلصة لخدمة الله بامانة ، عندما تحاصرهم حدود الناموس المستمدة من الشروح التقليدية المتواترة ، يستيقظ في نفوسهم شعور الفشل والقنوط في بلوغ الدرجة المرجوة من الكمال في نظر الله القدوس . ولكن الناموس بالنسبة للسفهاء المفترين هو مظهر خارجي للكفاية القانونية يمدهم بالقدر المناسب لجميع ألوان الجور والفجور المصبوغين بالصبغة الشرعية .

والآن لننتقل إلى تعليم المسيح عن مملكة السماء . وهنا نشعر أننا في جوّ مختلف كل الاختلاف . و بيِّن أن المسيح لم يضع لأتباعه شرائع جامدة ثابتة، بل إنه وضع لهم مبادىء ومُثلاً ، يستطيعون أن يستخلصوا منها احكامهم الشخصية في جميع أطوار حياتنا البشرية المتباينة المتشابكة . وقد كانت تلك التعاليم بالنسبة لليهود المستقيمي الرأي والتفكير، الذين نشأوا في ظل الناموس وأحكامه التي تقضي على كل من يتجاوزها بالهلاك ، كأنها نغمات الحرية لسجين أُفرج عنه .

على انه أعطى أتباعه شيئاً اكثر من المبادىء والمثُل . أعطاهم نفسه . ونحن الذين نؤمن به، نرى فيه الملك ذاته، ملك مملكة السماء، جاء ليظهرنا ـ ليس بمجرد التعاليم بل بواسطة حياته ومثاله ـ على معاني خدمة ملك الملوك. ذلك انه أطلعنا أول كل شيء ـ بواسطة كمال طبيعته الانسانية المعصومة ـ على معاني الطاعة الواجبة على الانسان من نحو الله. وهذا النموذج من الطاعة الصحيحة ، الوضيعة في أعين الناس ، والمجيدة في عين نفسه ـ تبين لنا اكثر مما تريناا الشرائع والاحكام،معاني الولاء لارادة الله،وكيف يمكننا ان نعترف به كملك . ولقد كان نوعاً من الولاء بلغ حداً من الكمال بحيث لم يقف في سبيله مهانة أو ألم . ففي اتضاع وصبر منقطع النظير ، احتمل تحقير السوقة والرعاع الذين تفلوا على وجهه ، ووجهوا اليه أقذع عبارات التأنيب كمجرم ، وأخيراً احتمل عار الصليب .

ولكن اكليل المجد الذي يتوج هام الدين المسيحي ، هو أنه جمع في ذاته ـ ليس كمال الطبيعة الانسانية وحسب ، بل أيضاً الطبيعة الالهية . انه

الملك ذاته الذي جاء على هيئة بشر ليجذبنا بربط محبته الالهية . هذه هي الحقيقة العظيمة التي تجعل من تعاليم المسيح شيئاً آخر يختلف عن التعاليم الأخرى . وعند ما أعلن « انه قد اقترب ملكوت السماء » ، كان على حق لم يدركه الكثيرون ممن سمعوه لأول وهلة . لقد اقترب ملكوت السماء فعلا وحقاً ، لأن الملك نفسه جاء وحلّ في وسطنا . لقد كانت مهمة الشريعة أن توضح مدى ابتعاد الانسان عن ملكوت السماء . ولكن الملك ذاته جاء واقترب ليقيم بلاطه بين الودعاء والاذلاء ، بين الخطاة من بني البشر الذين كانوا يتطلعون نحو خلاصه . ما أعظمه حقا « ان الله كان في المسيح مصالحا العالم نفسه » !

لعلنا الآن بدأنا نفهم لماذا علّق المسيح أهمية كبيرة في تعاليمه عن الملكوت . فبدلاً من فكرة الشريعة المبهمة ، فكرة الحقد والعقاب على الخطية وسيف الدينونة المسلط على رقاب البشر ، قدم لنا المسيح امتياز العضوية في ملكوته المقدس المؤسس على دعائم من الولاء والتكريس لشخصه هو — وفي تواضعه ومحبته غير المحدودة ، وغفرانه الخطايا لكل من يؤمن به ، يقودنا الى التوبة والتصميم على التفاني في الخدمة باخلاص . وتلك الثقة والتوبة والقصد الممكن ، تلك الصفات الجوهرية للحياة المقبولة لدى الله ، هي وليدة اختبار محبته الدافقة ، وهي التي تنهض بحياتنا وتمنحنا قوة نتغلب بها على الشدائد والصعوبات .

ورب سائل يقول : كيف استطيع أن اختبر محبته ؟ . . كيف نستطيع أن نشعر وأن نعرف بأنفسنا أن المسيح يحبنا ويغفر لنا ويقوينا ؟

وأول كل شيء يمكننا أن نقرأ ونتأمل قصة الانجيل . إن لكلمة الله

قوة عجيبة في قلوب البشر . والباحثون المخلصون وجدوا في تلك الصفحات سؤل قلوبهم . وكما قال المسيح ذاته « اسألوا تعطوا . أطلبوا تجدوا . اقرعوا يفتح لكم ».وكل ما نطلبه ممن يقرأ تلك الـكلمات ، أن يجعل منها موضوعاً لبحثه ودرسه في جدّ وصلاة . وسيظهر حق انجيل يسوع المسيح ، انجيل الملـكوت ، كما ظهر لبواكير المسيحيين في فجر التاريخ . « لان الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لانارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح ».

وفي النهاية لنذكر أن ملـكوت المسيح ليس مجرد شيء نقرأ عنه في كتاب، ليس شيئاً كان في الأيام الخالية منذ زمن بعيد.انه موجود هنا والآن. انه حقيقة حية ، بل هو في الواقع موجود في وسطنا « ولا يقولون هوذا ههنا أو هوذا هناك لأن ها ملـكوت الله في داخلـكم » . وكنيسة المسيح على الأرض هي الواسطة المعينة من الله التي بها ينادى بانجيل هذا الملـكوت ، ليس بالـكلام وحسب ، بل بالمثال أيضاً . ومن الحقائق المؤيدة بالاختبار أنه حيثما وجد مسيحيون حقيقيون في أي مكان ، وجدت شركة عميقة في المسيح تنتصر على حدود الطبقات والاجناس والالوان والقوميات . وفي تلك الشركة الأمل الوحيد للسلام على الأرض والمودة بين البشر .

أيها القارىء الـكريم : هلاّ تفكر فيما تعنيه هذه الأقوال؟ ألا تنصت إلى كلمات المسيح الخطيرة « توبوا لأنه قد اقترب ملـكوت السموات » ؟ ألا تجاهد لكي تدخل إلى ملـكوته ، وتكون في زمرة المختارين الذي يقول عنهم « من يقبل إليّ فلا أخرجه خارجاً » ؟ !

الناس يظلمون إرادة الله

« إنها ارادة الله » ! هذه من اكثر العبارات ترديداً على الألسنة في الشرق ، فاذا ما زلزلت الارض زلزالها، ونكب الاهل في اعزائهم ، سرعان ما تشيع على الالسنة « هذا قضاء الله ولا رادّ لقضائه » . وقد يقذف طفل طائش بنفسه وسط زحمة العربات والسيارات وهو يجري وراء كرة يلهو بها ، فتدهمه سيارة وتقضي عليه ، فما أسرع ما تتردد على شفتي والديه المحزونين عبارة « انها ارادة الله »! وقد يقضي طفل في مستشفى بعد صراع طويل يبذله خيرة الاطباء ، وجهد كبير من والديه والقائمين على رعايته وتمريضه ، وعلاجه بأحدث الادوية التي اكتشفها العلم ، فيذهلك أن تسمع من والديه المفجوعين تلك العبارة الخالدة « انها ارادة الله » . ولو ان هذا الطفل بالذات شفي من مرضه ، فهل كان والداه ينسبان شفاءه الى ارادة الله ؟ وهل يمكن أن تجمع ارادة الله — وان شئت فقل قصده الحكيم — بين موت الطفل وشفائه كليهما معا ؟

أعرف شابا غرق أثناء الحرب عندما أصابت سفينته طوربيداً من غواصة يابانية . ولقد أعلنت والدته أنها تؤمن بان موته كان وفقاً لارادة الله . ألم يكن موت هذا الشاب نتيجة بالاكثر لإرادة قائد الغواصة ، الذي عندما رأى السفينة صوّب نحوها طوربيداً ، وهو يعلم تماما أن قذيفته اذا مسّت

السفينة ستؤدي حتما الى تحطيمها وموت بعض بحارتها وركابها ؟ أليس هناك فارق إذن بين ارادة قائد الغواصة وارادة الله ؟

فقدت أم طفلها فقالت في لوعة وحسرة : « اني اعتقد انها ارادة الله .. ولـكن لو أن الطبيب وصل في الوقت المناسب لشفي ولدي » . لاشك أن هناك خطأ في هذا النوع من التفكير . ان طبيبا ما لايستطيع أن يقاوم ارادة الله ، فلو أن حضورالطبيب كان كفيلا بشفاء الطفل، فان موت الطفل إذن لايجوز أن يكون من ارادة الله ؟

ان التاريخ يثبت لنا أن الحوادث القاسية الأليمة وقعت لأن الانسان احتضن فـكرة عن الله غير انسـانية ، ولانه لم يستطع على الاقل أن يفهم ارادة الله على حقيقتها ، وان ما أصاب العالم من كرب وبلاء وقع فعلاً لان فئة من الناس لم تكن لديهـا عقيدة ثابتة عن الله ، وسلمت بان ما يلاقيه الانسان من هول وعناء يسرُّ ارادة الله . ومازال في أيامنا هذه قلة من الناس في بعض أنحاء العالم يظنون ان الله يوافق على مثل هذه القسوة والوحشية . وانه لمن المرعب حقا ان نعتقد أن الله ُيسر بموت الانسان، اذ أننا لانستطيع أن ننسب لله شراً كهذا ، فكيف ُيسر قلب الله بمكروه يحيق ببني البشر ، والانسان هو تاج خليقته .

أي إله هذا الذي يذيق عبـاده مراً وعلقما ، ويصبُّ عليهم التعـاسة والمصائب عن عمد و بدوناستحقاق ، ثم يأمرهم بان يرفعوا رؤوسهم و يقولوا والدموع تنهمر من عيونهم « لتكن ارادتك » . اننا نؤكد أن كل شيء يحدث للبشر معلوم سلفا عند الله ، ولـكن هذا يختلف تماما عن القول بان

الله يتعمّد فرض الألم والأسى على أبنائه . لاشيء في العالم يمكن أن يفاجيء الله، ولـكن الله لن يرضى بان يخطيء الانسان. انه يعلم سلفا الخطايا والذنوب والجرائم التي تُقترف، ولـكنه لا يريد طبعا أن تقع جريمة واحدة، وإلا فانه يكون علة الشرور ، وهذا ما لا يتصوره عقل ، لان الله نور وليس فيه ظلمة البتة . وكل ماهو شر أو نتيجة لخطية ، بعيد كل البعد عن قصد الله وارادته.

الله محبة — محبة كاملة — وعلى ذلك فان ارادته دائما للخير . ولنا وعد بسلطان من يسوع المسيح لا يتطرق اليه الشك بان ارادة أبينا السماوي لا تسمح بان يهلك واحد من أبنائه الاصاغر : « هكذا ليست مشيئة امام أبيكم الذي في السموات أن يهلك أحد هؤلاء الاصاغر » . هنـاك أشياء كثيرة في هذا الجانب الخطير من الحياة لا نستطيع فهمها، ولكننا على أية حال لا يجوز لنا أن ننسب لله شراً . فان هذا هو أقبح ألوان الكفر بالله . ولقد كان «جورج ستيوارت ميل» الفيلسوف على حق حين قال : «لن أميزّ كائنا من كان بميزة الصلاح مالم يكن فعـلا على صلاح بالمعنى الذي أفهمه من الصلاح . واذا كان في العالم مَن يرسلني إلى جهنم لاني لا أدعوه صالحا على هذا الاعتبار ، فالى جهنم سأذهب » . فاذا كنا نؤمن بصلاح الله الكامل ، لا نقدر أن ننسب لارادته أي شر . ولكن اذا تحدى البشرُ الله أو قاوموا ارادته ، فهو يقدر أن يستعمل خطاياهم في تخليص المذنبين ، و بذلك يدفع الى الامام قصد محبته للبشر . وهذا قول مختلف تماما عن القول بان الله يريد بالبشر شراً .

من الامثلة المشهورة على ما يُعزى الى ارادة الله ، ما حدث في مستهل

هذا القرن عند ما أصدرت الحكومة أوامرها الى الفلاحين في جنوب افريقية باستعمال نوع من الآلات الرشاشة لقتل يرقات الجراد في مرحلة قبل طيرانه ليدفعوا بذلك عن مراعيهم تلفاً محققاً . وقد رفض بعض الفلاحين تنفيذ تلك الأوامر بدعوى ان الجراد هو نوع من القصاص ينزله الله بهم ، ويجب على الانسان ألا يقاوم ارادة الله . ونرجو أن يقلّ هذا الطراز من المفكرين بين أبناء الشرق ، والا ساءت أحوال الزراعة وانحط مستواها .

جاء وقت ظن فيه الناس ان الحرب تنشب تبعاً لارادة الله ، ونرجو أن تمحى هذه الفكرة من أدمغة البشر في هذه الايام ، فان كانت الحرب شيئاً، فهي على ضوء رسالة المسيح على الاقل ، مقاومة لارادة الله .

ومن المدهش ان معظم الناس ينظرون الى ارادة الله بحسبانها مقاومة لرغباتهم الشخصية ، ويسيئون الظن بها الى حد بعيد، حتى انهم ينسبون الى الله ما لا ينسبونه الى صديق عزيز أو قريب من الأهل. روت كاتبة امريكية قصة عن أحد زراع الدخان ممن اجتاحت مقاطعتهم موجة من البرد القارص أصابت محصول الدخان فيها بعطب كبير ، وكان الرجل يقصّ عليها قصته فقال لها : « لقد أتلف البرد محصولي كله ولم يكن مؤمناً عليه » . ولقد وآسته الكاتبة وشجعته، فشكرها على رقة شعورها وأعقب قائلا «انها خسارة جسيمة أصابتني ، ولولا ان الله هو الذي أراد ذلك ، لمتُّ كمداً » .

انما ارادة الله هي أن ننتصر دوماً على قوات الشر والألم، وارادة الله هي للخير دائماً ، ولكنه عندما خلق الانسان ونفخ فيه نسمة الحياة ، اعطاه ارادة

حرة . والانسان في معظم الاحيان يسيء استعمال هذه الحرية في الارادة الى حد لايحجم معه عن مقاومة ارادة الله. وعندما يقاوم الانسان ارادة الله تحل الخطية ويفرض الالم نفسه ، ولكن هذا الالم في ذاته ضد ارادة الله الاصلية .

عند ما خلق الله الانسان ، كان يستطيع أن يجعل منه آلة مضبوطة لاتخطيء ولا تقاوم ارادته . لقد أجرى الله الكواكب والاجرام الهائلة في أفلاكها في دورات منظمة ، وهي تسير فيها في طاعة عمياء تخضع لنواميسها التي وضعها لها. ولكنه اختار أن يعطي الانسان ارادة حرة بحيث اذا أحسن استعمالها أصبح ابناً لله ووارثاً له . والواقع ان الله عندما منح الانسان ارادة حرة ، فرض على نفسه قيوداً وحدوداً ، ولقد رضي الله بهذه القيود على نفسه حتى يكفل لارادة الانسان حرية حقيقية ، ولكي لا تكون ارادة الانسان أداة مسخرة مسلوبة . ونحن نستطيع أن نقول في إجلال وتوقير إن في منح الانسان ارادة حرة صحيحة، تقرباً ورضاء من جانب الله. اذ أن تلك الارادة الحرة للانسان يجب أن تؤدى بحسب قصد الله الى بنوة الانسان لله ، ولكن الانسان اذا ما أساء استعمال تلك الارادة الحرة، يُغرق — وكثيراً ما أغرق — الكثيرين من أخوته في البشرية في طوفان من التعاسة والحزن . ولكننا نشعر واثقين انه لم تكن هناك وسيلة أخرى لله بها يضم اليه أبناء جديرين بمحبته الفائقة غير منحهم ارادة حرة . فاذا كان هنـاك كثيرون ممن أساءوا استعمال هذه المنحة الكريمة التي لا تقدر ، فان ملايين آخرين قد استعملوها على وجهها الصحيح ، فجلبوا الى قلب أبيهم فرحاً عظيما لايوصف. ولو خلق الله الانسان بغير قوة لاختيار الخطأ ، لما كان لدى الانسان قوة الاختيار أصلا،

ولو أن الله أعطى الانسان الحق في اختيار الخير فقط ، لأمسى الانسان مجرد آلة ذاتية الحركة ، تسير في دائرتها المرسومة لها دون أن تضل او تزوغ ، شأنه في ذلك شأن الكواكب تسير عمياء في أفلاكها لا نسمة لها من حياة أو روح .

ونحن ما زلنا نقابل الكثيرين من الناس ممن ينكرون أن لهم حرية ارادة ، ولكننا لم نقابل شخصاً ينكر على غيره تلك الارادة الحرة . لم نسمع أبداً عن انسان يقرّ بان اللص الذي يسرق منه نقوده كان يمكنه أن لا يسرق مثلا . الواقع انه يجب أن نعلم جيداً أننا جميعاً أحرار في اختيار الخير أو الشر ، واننا لسنا مرغمين على فعل الشر . وكل من له ضمير حر ويرتكب شراً يشعر في قرارة نفسه ان هناك سبيلا أسمى وأنبل مفتوحة أمامه ، كان يمكن له أن يسلكها .

فالانسان إذن بسبب المنحة الملكية التي أعطاها له الله ، يستطيع أن يقاوم وأن يتحدى الله ويعمل ضد ارادته ، ولكنه لن يستطيع أن يبطل قصد الله في النهاية . لانه لو استطاع أن يبطل قصد الخالق ، فان هذا يعني أن الله عندما خلق الانسان تخلى عن عرش العالم . ان الله ما زال يحكم ، والانسان الذي يملك منحة تمكنه من أن يسمو حتى يصل الى مرتبة ابن الله ، ما زال خليقة الله .

عندما جاء يسوع المسيح الى العالم دعا الناس أجمعين لكي يتوبوا ويدخلوا الى ملكوت الله . وبمعنى آخر أن يقبلوا حكم الله في قلوبهم ويطيعوه في فرح . ولاشك انها كانت ارادة الله أن يقبل البشر تعاليم المسيح ويتبعوه .

ولقد سلك البعض هكذا، ولكن معظم اليهود رفضوا أن يتبعوه ، و بلغ من تعنت البعض الآخر ومقاومتهم له ، ان اصبح لا مفرّ من أن يبذل المسيح حياته على الصليب أو يهرب من وجههم. ويسوع على ما كان له من شجاعة لا تقهر ، لم يكن في وسعه أن يهرب ، ولـكنه في فرح قبل الصليب . لقد كان قصد الله أن يتبع البشر يسوع ليجدوا فيه حياتهم، ولكن عندما وضعت خطية البشر يسوعَ في موقف اختيار بين الموت أو الهرب ، في هذا الظرف بالذات ، اصبحت ارادة الله أن يموت المسيح ، و بواسطة صليبه أتم العمل الذي كان يمكن لخطية الانسان أن تبطله . لم يكن الصليب من ارادة الله الاصلية مبدئياً . ولـكن من أجل الظروف التي أدى اليهـا عصيان البشر المتمردين ، اصبحت ارادته أن يفتـدي يسوع الـكثيرين ببـذله نفسه على الصليب .

ان ارادة الله دائماً هي إسعاد أبنائه وتوفير أسباب الهناء الكامل لهم ، وحتى عندما يرفض البعض العمل بحسب ارادته تعالى، و يتألمون بسبب عنادهم وتمردهم ، فهو لا ينبذهم. انه يعمل بوسائل أخرى على كسبهم وادخالهم تحت مظلة السعادة التي أعدّها لهم ، وتلك الوسائل الجديدة يمكن أن نسميها ارادة ثانوية أو عرضية ينتهجها الله وفقاً لظروف الانسان وتصرفاته . ولأنها ارادة تقتضيها دائماً خطية البشر ، نجدها مصحوبة دائماً بالالم. والله لا يعتبر مسئولا عن هذا الالم الذي لاشك كان ينتفي ، لو أن الانسان عمل بحسب ارادة الله الاصلية ، اذ أن تمرد الانسان هو الذي يضعه تحت سلطان هذه الارادة العرضية الثانوية . و يجب هنا أن يكون مفهوما، بل مؤكداً، ان

ليس لله غير ارادة واحدة . ولكن عند ما يبتعد قصد الله الاصلي عن الهدف بسبب خطية الانسان ، فان الله وهو الحاكم في مملكة الانسان ، ولا يمكن أن ينهزم أمام خليقته ، يلتزم خطة اخرى في توجيه ارادته . فمنذ البدء عرف الله انه بسبب الخطية ، يستطيع الانسان أن يقاوم قصده الأساسي ، وعرف أيضا منذ الأزل انه سيضطر الى استخدام ارادة ثانوية أو عرضية . ان ماقدمه الله للانسان كقصد أساسي كان اختياراً حقيقيا، ولو قبل الانسان واختار ارادة الله منذ الأزل ، لوفر على نفسه وعلى أخوته في الانسانية الكثير من أسباب الالم والشقاء .

فمثلا: لم تكن أبداً ارادة الله أن تقوم الحرب العالمية الثانية وأن يغزو هتلر بولاندا ، و يجتاح بجيوشه هذه الدولة الصغيرة و يوردها موارد الهلاك ، ولكن حدث عند ما ركب هتلر رأسه واستغل منحة حرية الاختيار التي يملكها — كما يملكها أيضا غيره من سائر البشر — استغلالا خاطئا واجتاز حدود بولاندا ، حدث هنا بالذات — ولسبب هذا الظرف ، ان اقتضت ارادة الله أن يهرع الحلفاء الى أسلحتهم للدفاع عن بولاندا وبصنيعهم هذا كانوا في الواقع يدافعون عن أوطانهم وعن أحبائهم ضد موجة الطغيان والاجرام التي كانت تجتاح أوربا في ذلك الوقت ، والتي لو لم يواجهوها و يتغلبوا عليها ، لحرم الملايين من لذة الحياة وحق عبادة الله بحسب ما تمليه عليهم الضمائر النقية .

والمرض ايضاً ليس من ارادة الله . ولقد اوضح لنا ذلك جلياً الرب يسوع عندما شفى المرأة التي أضناها المرض لان الشيطان كان ربطها ثماني عشرة سنة. وهو بمعجزاته الكثيرة التي أجراها لشفاء المرضى أعلن بطريقة لا يخطئها أحد

ان المرض يتبع مملكة الشر. وفي مناسبات عديدة لاتحصى قاوم المسيح انواع المرض الكثيرة وتغلب عليها . وامره للرسل ما زال قائماً « اشفوا المرضى » . وأينما حلّت كنيسة الله تأخذ على عاتقها الكفاح ضد المرض على اختلافَ صوره. ولو أن المرض هو ارادة الله ، اذن لوقف الأطباء والممرضون مع المسيح في صف واحد يقاومون ارادة الله ، وتلك فكرة لاشك سخيفة وغير معقولة.

هناك الكثير عن مشكلة المرض لا نستطيع فهمه ، ويسوع نفسه لم يحاول أن يشرح ، لا مشكلة المرض ولا مشاكل أخرى كثيرة تحيط بحياتنا. ولطالما نبّه تلاميذه الى أن له أموراً كثيرة ليقول لهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يحتملوا . وعلى ذلك يجب علينا على الأقل ألاّ ندهش اذا وجدنا أشياء كثيرة في الحياة تحير عقولنا المحدودة . فنحن فعلاً لا نستطيع أن نفهم لماذا خلق الله الجراثيم والعقارب والحيات — ولو أن أشـــد انواع الحيات سماً يُستخلص منها اليوم أمصال نحارب بها المرض — ولكن ما نعلمه هو أننا يجب باخلاص أن نسعى بحسب ارادة الله في أي ظرف نجتازه في الحياة . يجب أن نثق بانه يستحيل ان يُهزم الله، بل هو في النهاية سيتغلب على جميع العقبات التي تضعها خطية الانسان في طريق تقدم ملكوته ، ولو أن الانسان يجب ان يتحمل جميع العواقب التي تترتب على الخطية .

يتساءل بعض الناس : هل ارادة الله أن يسقط طفل من نافذة في طابق عال فتدق عنقه . يقيناً ليست ارادة الله ان يوضع الطفل في مكان يسمح له بالسقوط من نافذة عالية ، ولكن عندما يبدأ الطفل في السقوط ، فان الله لايبطل ناموس الجاذبية ليمنعه من السقوط حتى ينقذ حياة الطفل من هلاك

محقق . وكل ما يستطيع الله ان يفعله ، وهو ما يفعله في الواقع ، ان يقبل حياة الطفل وديعة في حضنه ورعاها ، الى ان يجتاز والداه ستار الموت وتتجدد صلتهما به في جنات النعيم. الحق اننا نرى الآن من خلال زجاج معتم، ولكننا حينئذ سنرى وجهاً لوجه . في السماء فقط ستنقشع غمـامة الشك ، وما يحير عقولنا اليوم سيصبح حينئذ جلياً واضحاً امام عقولنا . والى ان يحل الميعـاد علينا ان نثق بالله، لا ان نفهمه . يجب ان نؤمن انه على الرغم من الألم — وهو لاشك ناتج عن الخطية — فان الله سينتصر أخيراً على كل قوات الشر ويصبح رب الكل .

نستطيع أن نقول مع أحد شعراء الفرنجة :

« اعرف الحق حقاً ، واعرف ان المعطي المسرور سوف يعطي بسخاء . اعرف ان الشجاعة خير من الخوف ، وان الايمان أفضل من الشك. اعرف ان الواجب ينير السبيل لاقدام السلام .

« اعرف انه وان اشتد عراك الابالسة واختفت اوجه الملائكة ، فان العالم كله في قبضة الحق والصواب .

« وانه في مكان ما تحت النجوم محبة أقوى من الكراهية .

« وحتى يكشف الليل عن استاره، سأنتظر لأرى الرب» .

في يوم ما ستحلُّ ارادة الله في ملئها، وقصد الله لابد ان يتحقق . والله يهيب بالانسان ان يتعاون معه لاتمام ارادته ، فاذا رفض الناس ان يكونوا عملاء بارادتهم ، فهو يستطيع ان يستعملهم كآلات . وكل انسان يستعمله الله كآلة عليه ان يدفع الثمن . والله يستعمل صليب المسيح كأعظم آلاته

في سبيل الخير . ولكن يسوع قال عن يهوذا « كان خير لذلك الرجل لو لم يولد ». الله لا يريد شراً ولكنه بالتأكيد يستعمل جرائم الانسان، كالصليب مثلا ، ليدفع الى الامام قصد محبته للبشر . ولكن خطية الانسان لن تهزم مقاصد الله . اذا لم يقبل الانسان ارادة الله الاصلية فان ارادة الله لا بد أن تنجز غرضها بطريقة اخرى ، ولو ان هذه الطريقة الجديدة تصبح موسومة بظروف مؤلمة لا يستطيع الانسان ان يجد لنفسه مخرجاً منها . ان الله يخدم الانسان حتى عن طريق خطيته واثمه .

وقع زلزال عنيف في نيوزيلاندا منذ زمن ليس ببعيد أصيبت بسببه المدينة بضرر جسيم ، فتهدمت المباني في معظم احيائها بما في ذلك الكاتدرائية الكبيرة . وفي وسط الخرائب وقف حجر كبير على شكل صليب ظل قائماً وحده دون سقوط ، وهذا بالنسبة للمسيحية رمز خالد . فاننا لا نستطيع ان نفهم تماماً الزلازل والعواصف المخربة الهوجاء والألم والحزن ، ولكن صليب يسوع يقوم دائماً ليذكر الانسان بقلب الله المتألم ، وهو علامة على أن في قلب الله دائماً صليباً . ان الانسان لا يتألم وحـــده مطلقاً إلا اذا رفض في طياشة أن يسمح لله بأن يشاركه في ألمه وحزنه ، وحتى على هذا الفرض فان الله يظل قريباً من قلوبنا ولو لم ندرك نحن، ولقد أوضح ذلك اشعياء أعظم أنبياء اليهود عندما قال « في كل ضيقتهم تضايق وملاك حضرته خلصهم . بمحبته ورأفته هو فكهم ورفعهم وحملهم كل الأيام القديمة » .

اذا كان الألم هو نصيبك في الحياة ، فاذكر أنك لم تدعَ وحـــدك اتحمل عبئه. فالله يتألم معك ، واذا لم تجد في هذه الحيـــاة خلاصاً أو عزاء

في الألم فانه ينتظرك على عتبة السماء ليرحب بك في حياة أمن وسلام عتيدة بان تحياها اذا ما قبلت الخلاص الذي يقدمه لك عن طريق المسيح. واذا فشلنا في قبول التضحية الكاملة التي يقدمها لنا المسيح، فكيف نهرب من اهمالنا هذا الخلاص المجيد.

لا يمكن لانسان ان يحول دون اتمام قصد الله من نحو العالم، ولكنه يستطيع أن يرفض الخلاص الذي يقدمه له الله « لأن الله يريد ان جميع الناس يخلصون والى معرفة الحق يقبلون ». ولكن الانسان برفضه رسالة الخلاص والامتناع عن السير في طرق البر، يقاوم ارادة الله بحيث يتلف حياته الشخصية. لذلك نرى كل انسان مسئولا الى أقصى حد عن اختياره الطريق الذي يسلكه، وبالتالي نصيبه من القضاء الأبدي. فما هو اختيارك اذن ؟ ان مسئولية هذا تقع عليك وحدك، فاختر بحكمة وترو وصلاة.

لماذا نشكو من الالم ؟ !

الألم من أعظم الاسرار غموضاً في الحياة البشرية . ومعظم الناس بل أكثرهم نبلاً وبرّاً ، لا يفلتون من قبضته القوية . ويحدث كثيراً أن يتألم الابرار اكثر من الاشرار . ولا شك أننا جميعاً لا يسوءنا أن يتألم الاشرار، ولكن الذي يسوءنا هو أن يتألم الابرار أيضاً. والألم ليس وقفاً على الأقوياء فقط ، بل لطالما قاسى منه الاطفال والضعاف من بني البشر . وإن مشهد طفل صغير وهو يعالج نوبة من الألم ، وما يعتري وجهه الجميل من تشنجات، يضعنا وجهاً لوجه أمام مشكلة معقدة تحيّر الألباب .

لقد حاولنا في بحث سابق عن « إرادة الله » اعطاء فكرة صادقة عن تلك الارادة المقدسة . ولا مناص لنا من تلخيصها هنا لما بين المشكلتين من ارتباط وثيق، إذ أن ادراكنا الصحيح لارادة الله يؤثر تأثيراً كبيراً في فكرتنا عن الالم .

إن معظم الألم ترجع أسبابه في الواقع الى حقيقة واضحة ، هي أن الله قد منح الانسان قوة الأختيار ، أو بمعنى آخر حرية الارادة . ويحل الألم حتما عند ما يسيء الانسان الاختيار. يريد الله دائماً أن يختار الانسان بحكمة، وان يختار الخير ، فيوفر على نفسه ألماً لا لزوم له . وإذا استعمل الانسان قوة اختياره في الشر، فان الله لا ينبذه بعيداً ، بل يستعمل حتى الشر الذي يأتيه

الانسان في سبيل تخليصه . ويحدثنا الرسول في رسالته الى تيموثاوس عن الله « الذي يريد أن جميع الناس يخلصون والى معرفة الحق يقبلون . ولكن الانسان لديه من القوة ما يستطيع بها أن يرفض هذا الخلاص. وليست ارادة الله أن يرفض الانسان الخلاص. ولكن اذا تمرد الانسان وامتنع عن قبول الخلاص ــ هبة الله للانسان منذ الازل ــ فان الله لن يرغمه على قبول هذه الهبة الكريمة ، لان إرغام الانسان على اختيار الخير معناه أن حرية الارادة التي أعطيت له إن هي إلا خدعة كبيرة . وبهذا الوضع يكون الله مسئولاً عن كل خطية ، ومثل هذا القول هو افتراء أو تجديف .

فالألم إذن ناشىء في أغلب الاحيان عن خطية الانسان إذ أن الخطية تفرض على العالم أشكالا وصنوفاً من الألم. وشبيه بتأثير الخطية في العالم: أن تهوي مطرقة ثقيلة على آلة دقيقة الصنع. فنتائج الخطية إن هي إلا كوارث تصيب الانسان . وفلاسفة الاغريق ــ ولم يكن في العالم من يدانيهم في الحكمة ــ لم يستطيعوا أن يفهموا كيف يسمح الله — إذا كان يجمع بين الخير والقدرة على كل شيء — بان يدخل الشر إلى العالم . وجادلوا في ذلك كثيراً ، فافترضوا أن الله إما أن يكون خيراً لا شك فيه ولا يريد شراً ، ولكن ليست له القدرة الكافية حتى يمنع الشر عن العالم ، و إما أن يكون له من القدرة ما يستطيع معها أن يسحق الشر ، ولكنه ليس على شيء من الخير بحيث يمنع الشر عن العالم . وهؤلاء الفلاسفة القدامى ــ ومثلهم كثير من مفكري هذا الجيل ــ انما فشلوا ، كما يفشل غيرهم الآن في فهم حقيقة واقعة ، هي أن الله خلق الانسان حراً ، ومنحه قوة الاختيار . وبهذه الارادة الملكية

يستطيع الانسان أن يقاوم الله. وما كان يتوافر للانسان ارادة حرة لو لم يقبل الله بمحض إرادته حدوداً خاصة لنفسه . و إذا ما أُريد للانسان أن يكون مخلوقاً كريماً له نسمة من الروح ، وجب أن تُطلق له حرية الارادة . والله بعد أن اكرم تاج خليقته،ومنحه حرية الارادة أو قوة الاختيار، لا يستطيع بعد ذلك أن يحول بينه و بين الخطية بان يمنعه من استعمال قوة الاختيار .

وعند ما نقول إن الله كلّي القدرة ، لا نعني بذلك أنه يفعل كل شيء . إذ أن هناك أشياء لا يقدر الله أن يفعلها،والانجيل الكريم يؤيدنا في ذلك بقوله «ان كنا غير أمناء فهو يبقى أميناً لن يقدر أن ينكر نفسه». والمقصود بهذا القول إن الله لا يستطيع أن يصنع شيئاً يتعارض مع طبيعة ذاته . فلا يستطيع مثلا ، بعد أن منح الانسان حرية الارادة ، أن يعود فيمنعه من حرية الاختيار ، فيناقض بذلك نفسه بنفسه . وليس في ذلك حدٌّ من سلطة الله وقع عليه من الخارج ، ولكنها في حدود رسمها الله لنفسه طوعاً حتى يتيح للانسان، إذا ما أحسن إستعمال حرية الارادة ، فرصة فريدة لان يصبح إبناً له . والقدرة على كل شيء هي قوة مجردة عارية لا يحدُّها شيء حتى ولا الصلاح، ولا الحكمة، ولا المحبة والله فيما نعلم هو المحبة والحكمة والصلاح. ولذلك يحدُّ قوته بهذه الخواص و يحترم إرادة الانسان. وهو يمنع الخطية، ليس بان يفرض سلطانه القاهر و يعطل ارادتنا الحرة، بل هو يريد دائماً أن يظفر باشتراكنا معه طوعاً في الغلبة على الشر، و يدعونا بوسائل محبته لان نسير في طرقه وفق إرادته.

والألم ثلاثة أنواع : ألم جسمي ، وألم عقلي ، وألم روحي . و بعض الألم الجسمي ينشأ عن كوارث الطبيعة مثل الزلازل والأعاصير والثورات البركانية.

وليس من السهل أن نفهم لماذا يكون الانسان فريسة لمثل هذه الكوارث الطبيعية . ونحن نؤمن أن هذا لغز ستُكشف كل غوامضه في الجانب الآخر من الحياة بعد أن ينقشع الظلام . ولكن يحق لنا أن نؤمن بأنه لو كان الانسان صالحاً ، ولا سبيل للخطية في حياته ، لامتنعت مثل هذه الكوارث. ويجب ألاَّ نبالغ في مقدار الألم الذي تجلبه علينا مثل هذه الكوارث ، فهو لا يكاد يذكر بالقياس إلى الألم الذي تجلبه على العالم خطيةُ الانسان. فالخسارة التي سببتها كوارث الطبيعة في مائة عام ، لا تقاس بالخسارة التي نجمت عن الحرب العالمية الاخيرة . والله قد أعطانا فطنة نستطيع بها أن نحدد الاماكن التي تجتاحها الزلازل على وجه الأرض ، وهو يريد منا أن نراعي في هندسة عمارتنا في مثل هذه الاماكن أن لا تتأثر المنازل بتلك الهزات الأرضية. وعلى النمط عينه قد وهبنا خبرة نستطيع بها أن نستبق الزمن، فنعرف موعد الاعاصير وطريق سيرها فنتوقاها بشتى الطرق .

على أن هناك بعض الناس يفكرون في أن الله يجب أن يشمل الابرار بعناية خاصة فيحميهم من شر الكوارث الطبيعية. ولكن المسيحي يعلم أن الله لا يحابي الوجوه، وليس لديه قوم مفضلون « فانه يشرق شمسه على الاشرار والصالحين ويمطر على الابرار والظالمين». والمسيح لم يعتبر الثمانية عشر شخصاً الذين سقط عليهم برج سلوام (ربما بسبب زلزال) خاطئين اكثر من جميع الناس الساكنين في أورشليم .

لو أن زلزالا فرَّق بين الابرار والاشرار ، فأصاب الاشرار فقط ، ألا يكون في ذلك تجربة كبيرة للكثيرين حتى يخدموا الله ابتغاء مثل هذه العناية

واتقاءً للسكوارث التي تحيق بالاشرار فقط ؟ ألا يصبح الدين في هذه الحالة مجرد وسيلة لتأمين الانسان شر كوارث الزمن، فينعدم بذلك الدافع الروحي الذي يسمو به الانسان الى منزلة رفيعة من الاخلاق والآداب ؟

لقد نوهنا الى الغموض الذي يكتنف المشكلة بالنسبة لطفل لم يصنع شيئاً يستحق من أجله أن يتألم: وهو مثل من أمثلة الألم الذي يصيب الكثيرين من بني البشر بغير استحقاق، مما يضفي على المشكلة ظلا كثيفا من الغموض والتعقيد . والمثل البارز لهذا النوع من الألم هو صلب المسيح ، فاذا كان هناك ألم بغير استحقاق على الاطلاق ، فلا شك انه ذلك الألم الذي قاساه ربنا يسوع ، البار الذي كان بلا خطية .

والمسيحي، مقتفيا مثال ربه وسيده، يعتقد أن المرض من صنع الشيطان. فعند ما شفى المسيح المرأة التي كان بها روح ضعف ثماني عشرة سنة ، وكانت منحنية لا تقدر أن تنتصب البتة، أعلن أنها «إبنة ابراهيم قد ربطها الشيطان ثماني عشرة سنة » . وأينما تجوّل يسوع كان يشفي المرضى. ولقد أمر تلاميذه أن يشفوا المرضى. وأينما حلّت كنيسة الله حملت معها رسالة الشفاء إلى انحاء المعمورة . انها تعلن أولاً الحرب على المرض، وتعمل على مكافحة الألم ، ثم تتوفر بعد ذلك على تدبر مشكلته والتمعن فيها .

ويعلم المسيحي أننا لا نتألم دائماً بسبب خطية ظاهرة ، فنحن لسنا أفراداً منفصلين بعضنا عن بعض، يعيش كل منا في استقلال عن الآخر . بل نحن نعيش في عائلة كبيرة — عائلة الانسانية جمعاء — وحياتنا متداخلة بعضنا في بعض ، ومرتبطة بآلاف من أنواع الحياة الأخرى . اننا ورثة لآلاف السنين

من الشجاعة والنبل، ومن الخطية والمرض. وأنواع الحياة الأخرى تماسُّ مع حياتنا في نقاط كثيرة ومواضع شتى. فالملابس التي نرتديها ، والكتب التي نقرأها ، والمنازل التي نسكنها ، والطعام الذي نأكله ، كل هذه وغيرها نتاج جهود الآلاف من الرجال والنساء في مختلف الأصقاع والاقطار. إننا نجني ثمرة الجهود العنيفة لألوف غيرنا قضوا زهرة أعمارهم في العرق والدم . نجني ثمرة جهودهم الجبارة دانية في يسر وسهولة. والالوف ممن سبقونا على طول الحقب، وممن يشاركوننا العيش في أنحاء العالم ، يمدُّون حياتنا بنعم وبركات ما كنا لنتخيلها أو نحلم بها، لولا تلك الشركة الواسعة التي تربط حياتنا بعضنا ببعض. فاذا ما نالنا أي سوء أو ألم بسبب هذه الشركة ، سرعان ما نشكو ونشعر بالظلم الذي يحيق بنا. وقليلون هم الذين يعترضون على الألم الذي يحيق بالخطاة . والكل يجمع على أن السكارى والفاسقين ، والكسالى والشرهين ، هم وحدهم يجب أن يتألموا بسبب خطيتهم ، ويشعر كثيرون بأنه ليس من العدالة أن يتألم البعض بسبب خطية الآخرين .

ولا شك أن الكثير من الألم وخصوصاً ألم الاطفال الصغار ناشيء عن خطية الغير. واشدّ ما تألم أطفال العالم في الحرب الأخيرة بسبب فئة قليلة من الطغاة أشعلت نارها . والسكارى يورثون أطفالهم استعداداً كبيراً للادمان على الخمر، كما أنهم في الوقت عينه يفشلون في تدبير القوت اللازم لهم ووقايتهم من فتك الأمراض التي يسببها سوء التغذية والفقر. والرجل الذي يتلوث بمرض سري يورث أطفاله الابرياء هذه اللوثة ومايصحبها من أهوال المرض الخبيث. ولطالما قاسى الاطفال بسبب خطية البعض ممن ليست لهم بهم صلة مباشرة ،

فالطفل الرضيع الذي يعتمد في غذائه على اللبن، يتألم على يد بائع اللبن الذي يغش لبنه بان يضيف اليه ماءً غير مَغْلٍ (وهي خطية عادية) ، فيتيح للجراثيم فرصة التسرب إلى طعام الطفل الذي يتأخر نموه ، فلا يستقيم عوده كما يريد له الله ، ويذوي ويسقط صريع تلك الجراثيم الفتاكة التي تنتشر بكثرة فائقة في كل مكان. فبائع اللبن الغشاش لعلة الطمع يتسبب في هلاك الاطفال الصغار، بينما يسمن هو ويغتني. قد يبدو ذلك لأول وهلة ظلماً . إنه ظلم لو كنا جميعاً منفصلين بعضنا عن بعض، لا صلة بيننا وبين الآخرين . ولكننا نعيش في في حياة متداخلة ، بل ممتزجة بعضنا مع بعض ، بشكل لا يمكن معه أن يخطىء فرد في حق نفسه فقط، وحتى موت رجل شرير قد يكون له أحياناً تأثير عميق على حياة الآخرين . وإذا نحن أحصينا المنافع الكثيرة والفوائد العميمة التي نتناولها بسبب الأعمال الطيبة التي يصنعها الآخرون، لا يحق لنا أن نشتكي من الشر الذي يحيق بنا بسبب الاعمال الرديئة التي يأتيها الآخرون. ويجب ألا يفوتنا أن الألم لا يشغل مكاناً بارزاً في حياة الكثيرين من بني البشر ، وإن وجد في كل بلد قليلون ممن دُعوا لحمل نير من الألم .

وكذلك لا تفرق الجراثيم بين الاشرار والابرار . وانه لمن الخير أنها لا تفرق بينهم . فلو كانت تفتك فقط بالاشرار ، لعمَّ التظاهر بالبرّ بين البشر حتى يجتنبوا خطر الأوبئة والامراض . ولا يغيبن عن البال أننا عند ما نستعمل كلمة بار أو شرير فانما نرمي إلى القياس النسبي فقط ، لاننا نعلم أن كل البشر خطاة « أنه ليس بار ولا واحد إذ الجميع اخطأوا واعوزهم مجد

الله » . وعلى ذلك فاننا حق عند ما نتحدث عن الابرياء يجب أن نذكر جيداً أنه ليس لواحد منا شيء من الحق في حياة مجردة من الألم .

ونحن لا ندري لماذا خلق الله الجراثيم والحيات وغيرها من الجراثيم السامة التي سببت الكثير من الآلام في العالم ، ولكننا نعرف يقيناً أن الله خير وليس فيه شر البتة . وفي يوم من الأيام ، وفي حضرته العلية ، سينجلي أمام أعيننا هذا اللغز وغيره من الالغاز . ولو لم تكن هناك قوانين ونواميس عامة تعمل في العالم دون تغيير ، ولو كانت قوة الجاذبية تؤدي عملها في بعض الاحيان فقط ، لأصبحت الحياة نوعاً من الفوضى ، مقلقلة ، لا نظام فيها ، وأمست بذلك حملا يُثقل كاهل كل إنسان . فالمسامير التي اخترقت يدي ورجلي الرب يسوع، لم تمتنع عن إيذاء السيد و إيلامه . وتاج الشوك أسال الدم غزيراً من جبهته ، وسبب له من الالم أكثر بكثير مما يصيب غيره ، لانه كان أكثر البشر حساسية ، وكان ألمه بدون استحقاق .

و يصعب علينا أحياناً أن نشاهد أماً تتألم من أجل خطايا ولدها العاق. ولكن ما أبشع أن نتصور أماً لا تشارك ولدها في آلامه . و إذا لم تشعر الام بخطية ولدها وألمه، فانها بلا شك تفقد الكثير من مزايا الفرح في حياتها بالنسبة لظروف أخرى، كأن يكون ولدها ناجحاً في الحياة ، نامياً في روح التقوى والبر . إن عالماً يحتمل فيه الخاطيء فقط وزر خطيته ، هو من أبشع ما يمكن أن يتصوره العقل. ومثل هذا العالم لا تكون فيه محبة ، والمحبة تبدو لنا في أجمل مظاهرها عند ما نتألم مع الغير ومن أجله. أيهما أفضل ؟ أن يتألم البريء من أجل الخاطيء (وأحياناً بدلا من الخاطيء)، أم أن يعيش كل فرد منا داخل

صدفة من الأنانية بحيث نكفل لحياتنا أن لا تتأثر بأي ألم خارجي خلاف الألم الذي نجلبه على أنفسنا بسبب خطيئتنا و إهمالنا. لا شك أننا جميعا نفضل الأول لان شركتنا مع جميع اخوتنا في عائلة المجتمع البشري هي نعمة لا تقدَّر بثمن ، وهي جديرة بأن نحتمل في سبيلها كل ما قد يصيبنا من ألم لا نستحقه. ومثل هذا الألم مع الشركة الاخوية أمر لا مفر منه .

و يجب ألا نقع في الخطأ بان نقصر نظرتنا إلى الألم من وجهة حياتنا على الأرض فقط، لانه بالنسبة لنا نحن الباقين على الأرض يبدو كارثة ومصيبة داهمة . ولكننا لو نظرنا اليه من الناحية الأخرى نرى الموت بالنسبة إلى هؤلاء الذين يؤمنون بالله ، والذين وجدوا الحياة الأبدية في موت رب المجد وقيامته، هو الرحلة العظمى والفرصة الشائقة الكبرى. لأننا من طريق أبواب الموت الضيقة ندخل إلى أمجاد الآب حيث الحياة الابدية. الله لا يمنع حدوث الزلازل، ولكنه لايرقبها بعدم اكتراث وهي تبعثر الموت والألم على الكثيرين من أبنائه ، انه يرسل ملائكته الى الجانب الآخر من الحياة ليجمعوا الى الابدية صرعى الكارثة، و بروحه يعزي الحزانى، و يواسي جراحهم، و يرسل سلامه إلى قلوبهم .

الله لا يقف بعيداً بمعزل عن ابنائه وهم يتقلبون على فراش الألم ،ولكنه يتألم معهم « لانه في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلصهم »[١]. وكل مَن يعرف المسيح كمخلص، يعلم أنه لم يُدعَ وحده للألم ، إذ يقف بجانبه دائماً سيده رب الحياة ، وفي قبضته المثقوبة من أثر المسامير السلام والفرح .

يعلم المسيحي أن الله يستعمل الألم ، بل لقد استعمله فعلاً في مناسبات

كثيرة ، في سبيل مجده الأبدي، ومن أجل إخصاب حياة الجنس البشري كله.
فالكثير من نفائس الأدب والفن هو نتاج طائفة من الناس تألموا كثيراً .
الألم وحده هو الذي حقق لنا تراثاً من الأدب والفن . ولا يوجد ألم لا تفيد
منه الحياة البشرية إذا أبدى الانسان استعداداً للافادة منه . والصليب هو
العلامة القائمة مدى الدهر على خبث الانسان ومكره ، ولكن الله قد جعل منه
وسيلة لخلاص البشرية . فاذا كان الله يستعمل صليب يسوع — أشنع جرائم
البشر — فيسكب به في قلوبنا المليئة باللؤم والخسة، هداية ونوراً ، فأي ألم
لا يستطيع الله أن يحوله الى فرح ، وخاصة الآلام التي لا نستحقها ؟

يأمرنا الله عندما نتألم بان نحمل اليه آلامنا في صلواتنا ، ونحن اذا
وضعنا آلامنا بين يديه ، فهي إما تزول لانه يشفي، واما تخف وطأتها لانه
يجعلنا اكثر احتمالا . واذا لم يستطع الله أن يزيل آلامنا فهو يحولها الى
مصلحتنا ، لان كل الأشياء — بما في ذلك الالم — « تعمل معاً للخير للذين
يحبون الله . الذين هم مدعوون حسب قصده » . الالم الذي لا يرضى الله أن
يزيله، يحوله الى نعمة كبيرة. انه يصبح دعوة لنا لمشاركة الله في رسالة خلاصه
لاننا حينئذ نستطيع ان نقول مع بولس الرسول « الآن افرح في آلامي
لاجلكم ، وأكمل نقائص شدائد المسيح في جسمه لاجل جسده ، الذي
هو الكنيسة » .

في صليب المسيح وحده نستطيع ان نجد حلاً لمشكلة الألم . الصليب
هو العلامة على كراهية الله الشديدة للخطية ومقته لكل انواع الشرور . الله
يشعر بخطية كل فرد وهو يتألم من اجل خليقته . الله هو المتألم الأول في

العالم . انه حاضر في كل ألم ، وهو يتألم لماتجلبه الخطية على العالم ، وألمه هو الخلاص والفداء للعالم . وهكذا تقابل المسيحية الأآم وتعالجه بصليب المسيح المتألم .

امام الصليب نرى آلامنا تحت الميكروسكوب . انها تتضاءل لدرجة تخزينا ، فلا نستطيع ان نرفع أعيننا امام اللهعندما ندرك كم من الالم كلّفته خطيتنا . اننا نتألم لاننا ننسى هذه الحقيقة عندما يصيبنا الالم ، ونظن اننا وحدنا نتألم. ان فكرتنا عن مقدار الالمالذي جلبته خطايانا علىالله ضئيلة جداً . ولكن عندما ننظر الىالمسيح على الخشبة ونرى جنبه المطعون ، نثوب الى رشدنا ، ونضرع الى الله ان يرحمنا ويغفر لنا . عندما ننظر الى المسيح معلقاً على خشبة الصليب ننسى آلامنا ، وخصوصاً ما اصـــابنا منها بغير استحقاقبالقياسالىالآلام القاتلة التيأصابته وهو الذي لم يعرف خطية البتة.

والرسالة الاخيرة للمسيحية عنالألم هي ذلك الأَملالمشرق الذي تبعثه في قلوبنا ، لانها تبشرنا بحياة أخرى سيمسح الله فيها كل دمعة من العيون، والموت لا يكون فيما بعد، ولا يكونحزن ولا صراخ ولا وجع ، لان الامور الاولى تكونقد مضت.ذلكم هو مصير من يؤمن بالمسيح ويقبل الخلاص الذي لنا فيمن قدم ذاته ضحية عنا ، معلقاً على خشبة الصليب .

بعد الموت ... ماذا ؟

منذ العصور السحيقة فكّر الانسان طويلاً في هذا السؤال . فهل الموت هو نهاية وجودنا على هذه الأرض ، أم انه يومىء إلى عالم آخر ؟ ومن عصر إلى عصر مدى التاريخ الطويل ، ألقى البشر إلى جوف الأرض بقايا أعزائهم وأحبائهم ، وفي كل هذه الحقب الطويلة لم يقم دليل ما على أن الحياة تبقى فيما وراء القبر .

ومن الغريب حقاً ، انه مع عدم توافر الدليل ، ما فتىء الانسان يصرُّ منذ أقدم العصور على أن الموت ليس نهاية الحياة . وما من شك في أن هذه الفكرة ظلت آلافاً من السنين عقيدة باهتة غامضة في أذهان البشر ، ومع ذلك فانها غالبت كل الأدلة الراجحة التي قامت ضدها . ولنا في بطون التاريخ وفي مخلفات علم الآثار ، ماينهض دليلاً على أن فكرة الوجود بعد الموت كانت عقيدة جامعة . ولقد أثبتت الحفريات في الآثار التي يرجع تاريخها إلى عصور غارقة في القدم ، وجود أدوات من الصوان الغشيمة في قبور الراحلين ، لكي تستخدمها أرواحهم بعد حياة الأرض فيما ينفع ، واستكشفت مؤخراً في مصر مقابر قديمة يرجع تاريخها إلى خمسة آلاف سنة وجد فيها الموتى يجلسون القرفصاء أشبه بوضع الطفل الجنين قبل نزوله من الرحم ، اشارة إلى أن الموت هو بمثابة ميلاد ثان ، كما عثر في أيديهم على قطع من النقود الفضية

ليقدموها هدية لصاحب الزورق الذي يعبر بهم إلى الشاطىء الآخر من الحياة ! ووجدت أيضاً في القبور القديمة حبوب و بقول و بخور وأوان وثياب وسائر الأشياء الأخرى التي يفيد منها الأحياء عادة في حياة الأرض .

وهذه العقيدة الملحة في حياة اخرى بعد الموت ، التي فرضت نفسها فرضاً على البشرية — نجدها شائعة بين كل الشعوب التي عرفها التاريخ ، على ما بينها من تباعد في الزمن ، واختلاف في اللغة والتفكير والثقافة . وحسبنا أن نذكر الهنود في اميركا الشمالية، والمصريين، والهنود، والصينيين، وسكان جزر البحار الجنوبية ، وغيرهم من الأجناس والشعوب ، الذين تشبثوا منذ فجر التاريخ بعقيدة ثابتة في الحياة فيما وراء القبر . ولم تكن هذه العقيدة على نسق واحد في مختلف الشعوب ، الا انها انطوت على فكرة واحدة ، هي أن الموت ليس نهاية الانسان .

وقبل المسيح بقرون طوال ، آمن الهنود واليونان والبابليون واليهود بان الانسان يحيا فيما وراء القبر . ولكن الوجود في حياة مستقبلة كان في نظرهم فكرة سقيمة ضعيفة ، وكلهم حسبوا الحياة على الأرض أرقى وأفضل من الوجود فيما وراء القبر .

وتدريجاً ، راح اليهود يعتنقون عقيدة عن إله شخصي ، خلق الانسان على صورته ، لكي يتمتع بالصلة بالله . وعلى مرِّ الأجيال ، وبارشاد نخبة صالحة من المعلمين والرسل والأنبياء ، تطورت الفكرة ، وادرك القوم أن الصلة بالله لن يمحوها الموت .

فالانسان خلق ليتمتع بالصلة بالله ، ولن يقوى الموت على فصم عرى

هذه الصلة . وقبل الآباء الاولين ، ابرهيم واسحق و يعقوب ، أعلن الله قائلا « أنا اله ابرهيم واسحق و يعقوب » . والصلة بين الله و بين أولئك الآباء لم يفصمها الموت ، فقد كان ، وما يزال ، إلهم وربهم .

وتدريجاً أيضاً ، تطورت عند اليهود عقيدة اخرى ، وهي ان الله مرسل ملكا سماوياً ، أو مسيا ، يقيم مملكة البر على الارض . وقد اقتضت حتماً هذه العقيدة ان يقوم من الاموات أتقياء اليهود الذين ماتوا متوقعين مجيء الملك البار — وكثيرون منهم ماتوا شهداء في سبيل مكافحة الشر — ليكون لهم نصيب في هذا الملك المجيد . وقد عانى اليهود الأمرّين على أيدي الغزاة الطغاة ، حتى تأصلت في نفوسهم فكرة أخرى بأن النهاية بين الاشرار الذين دنسوا فلسطين ، وقتلوا أبنـــاء اسرائيل ، سيقومون أيضاً ليلقوا جزاءهم العادل .

على أن ربنا يسوع المسيح هو الذي أخصب الفكر البشري وزوده بأرقى المعاني عن حياة المستقبل . ولقد فعل هذا قبل كل شيء ، بتعليمه عن أبوة الله . ومعنى هذا ، حسب تعليمه ، أن كل فرد هو موضع عناية خاصة من جانب الله الذي لن يرضى بغير الصلة الكاملة بينه و بين كل انسان من أبنائه . فكل الانفس البشرية ترتبط بعلاقة خالدة بخالقها وصانعها . وان كان الله — كما علّمنا المسيح — أب للجنس البشري قاطبة ، فانه بعيد جداً أن نتصور بانه عند انحـــلال الجسد الذي نسميه « موتاً » ، سيطوح بتلك الشخصيات التي خلقها وأحبها كأنها من المهملات التي لا قيمة لها . ونحن نعلم رعايته لكل ذرة في الكون ، فكيف نتصور بانه سيلقي في زوايا الاهمال

تلك الشخصيات المجيدة التي كلفته نزاعاً دموياً عنيفاً في جثسيماني ، وألماً قاسياً مريراً في الجلجثة .

وفي زمن المسيح آمن كثرة اليهود بأن حياة الانسان لن تنتهي عند الموت . ومرة تلو الاخرى أشار ربنا بلهجة التأكيد إلى قيامة الموت . ومن أقواله في هذا الصدد « لا تتعجبوا من هذا . فانه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته ، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة ، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة » (يو ٥ : ٢٩) .

وفي ثلاث مناسبات أقام يسوع الموتى ، فأكد بهذا الصنيع عقيدته في الحياة بعد الموت .

على أننا في قيامة ربنا يسوع المسيح نفسه ، نجد أنصع دليل وأثبت يقين لقيامة الانسان . والآن لنعد إلى بحث الأدلة المؤيدة لقيامة يسوع ، ويمكن لنا أن نوجزها في أربعة : —

١ — ظهور الرب المقام لكثيرين من طبقات مختلفة ، وفي أوقات متفاوتة ، وفي ظروف متباينة .

٢ — القبر الفارغ .

٣ — الاختبار الذي عرفته الكنيسة المسيحية .

٤ — شهادة الرسول بولس .

أولاً — وأولى الشهادات المسطورة نجدها في كتابات الرسول بولس . ففي ١ كو ١٥ : ٣ — ٨ يقدم لنا بياناً رسمياً عن وقائع ظهور ربنا بعد قيامته . ودليل بولس هذا تسنده شهادة الكنيسة كلها . من ثمّ لا يعتبر هذا الدليل

مقدماً من انسان واحد ، وان يكن هذا الانسان الواحد من عظماء الثقات . والواقع أن وجود الكنيسة المسيحية واستمرارها حتى اليوم يدلُّ على قيامة المسيح . ولو لم يكن المسيح قد قام فعلاً ، لما كان للكنيسة وجود . وذلك لانه منذ البداية كانت قيامة المسيح من أبرز التعاليم في اقوال الرسل ، وهي متضمنة في كل رسائل العهد الجديد . ولا ننكر انه ليس من الميسور تنسيق وقائع ظهور ربنا بعد قيامته في حلقة متصلة ، لان هنالك اختلافاً وتبايناً في بعض التفاصيل. ولكن هذا التباين يزيد ، ولاينقص ، من قيمة الأدلة . لانه يشهد أن هذه البيانات تتضمن أقوال شهود مستقلين ، لا تكراراً أعمى مصطنعاً لقصة ائتمر على حبكها قوم ملفقون . وبديهي ان شهود أي حادث في ساعة الثوران النفسي ، تتفاوت أقوالهم بعض التفاوت في التفاصيل الصغرى . والقاضي الحصيف ينظر دائماً بعين الريبة والاشتباه إلى الحبكة المحكمة المضبوطة في أقوال شهود مختلفين .

والادلة المستقاة من سفر أعمال الرسل بالغة في الاهمية . وتتكشف الفصول الاولى من هذا السفر عن الادلة التي تثبت كيف كانت الكنيسة الاولى تتحسس طريقها لتدرك قيامة المسيح ادراكاً أتم . وفي كل قول ، وفي كل خطاب ، شدد الرسل على انهم كانوا شهود عيان لهذه القيامة .

ثانياً — أثبت كافة الرسل ان القبر كان فارغاً في اليوم الثالث . وقد دفن يسوع مساء الجمعة ، وفي صباح الأحد وجد القبر فارغاً. ويقدم لنا الرسول يوحنا في ٢٠ : ٣ — ١٠ وثيقة قيمة ودليلا بكراً من الطراز الاول . وذلك لانه لما دُفن يسوع في القبر لُفَّ حول جسده ملاءة طويلة كفناً للجسد ،

ووُضع بين طيات هذه الملاءة حنوط وأطياب لزجة. وكان وزن هذه الاطياب ثقيلاً جداً . ولما دخل يوحنا القبر في صبـــاح الاحد ، وجد هذه الملاءة الملفوفة على حالتها ، سليمة بكامل طياتهـا ، لم تفك من حول الجسد . ولم يكن بها إلا ثقب ضيق حول الرقبة ، فلم يكن مستطاعاً لأية يد بشرية أن تنقل الجسد وتترك الملاءة سليمة في مثل هذا الوضع. والظاهر أن جسد يسوع تسحّب من الاكفان بطريقة معجزية غامضة ، وهذا يعلل وجود الملاءة سليمة بطياتها كاملة عندما قام يسوع من الاموات . وليس غريباً أن يؤمن يوحنا بان يسوع قد قام من الاموات بعد أن شهد بعينيه هذه الوقائع ، وقد أيقن ان صديقاً او عدواً لن يستطيع سحب الجسد دون تفكيك هذه الاكفان الطويلة أولاً . من ثم لابد أن يكون الجسد قد انسحب بطريقـة خارقة للطبيعة . وليس أمامنا إلا تأويلان لرواية الرسول : فاما أن يكون قد عاين فعلا هذه الوقائع التي سردها ، واما أن يكون قد صور لنا مشهداً من الخيال الروائي في شكل قصة واقعية . وان جاز وجود مثل هذا الخيال بين الروائيين في الأدب الحديث ، فانه لم يكن معروفاً اطلاقاً في أدب القرن الاول . فضلا عن هذا فان الرسول لم يكن في حالة نفسية تسمح له بابداع هـذا الحبك الروائي. ويحق لنا أن نؤكد بان وجود العدد الهائل من المنتصرين في أورشليم في العهد المسيحي الاول ، انما مردُّه في الواقع إلى أن القبر الفارغ كان منظوراً ومعروفاً للجميع .

ولو لم يكن القبر فارغاً ، لبادرت السلطات اليهودية والرومانية في غير وناء إلى اظهار بقايا الجسد البالية وعرضها امام أنظار التلاميذ والانصار الذين

تكاثر عددهم ، وكانوا بذلك يقضون القضاء المبرم على الدين الجـديد . على ان السلطات لم تفعل شيئاً من هذا . ومامن شك في أن السبب الوحيد الذي عاقهم عن اظهار الجسد هو أن يسوع لم يكن بعدُ في القبر . وقدحاول اليهود تعليل القبر الفارغ بقولهم ان التلاميذ جاءوا وسرقوا جسد يسوع ، على أنهم لم يقدموا دليلا واحداً لاثبات هذا الزعم ، وانعدام الدليل هو في حد ذاته دليل اضافي على القبر الفارغ . ولو كان اليهود أو الرومان هم الذين سرقوا الجسد ، لكانوا أظهروه ، وألقوا حجراً في أفواه الرسل الذين راحوا ينادون بقيامة المسيح في مدينة أورشليم ذاتها .

ولو زعمنا أن التلاميذ هم الذين سرقوا الجسد ، فاننـا نواجه معجزة يصعب على العقل تصديقها من الوجهة النفسية . اذ كيف يجرؤ هؤلاء الرجال الذين فرّوا مذعورين من بستان جثسيماني وسيدهم على قيد الحياة ، وتركوه وحيداً بين أيدي أعدائه — اقول كيف يجرؤ هؤلاء الذين لم يتوقعوا قيامته مطلقاً على الخروج إلى العالم مزودين بقوة والهام لمواجهة سلطتين من أقوى السلطات التي عرفها التاريخ — وهما الامبراطورية الرومانية والدين اليهودي؟ ان مثل هذه المعجزات في الميدان النفسي أبعد من ان تصدق ، بل هي أبعد من قيامة يسوع في الميدان الطبيعي.

وسلوك الرسل الاولين وتصرفاتهم تنأى بنا عن أن نحسبهم خادعين محتالين، ذلك لان الاحتيال العمد لاينسجم بتاتاً مع حياتهم الطاهرة المقدسة. ولسنا ندري لماذا يمعنون في مثل هذا الخداع الذي لم يجلب عليهم غير الخسائر والأخطار ؟ ان مثل هذه المكيدة لابد تُكشف على مرّ الزمن ، ولاشك في

ان السلطات قد بذلت كل جهد للعثور على جسد يسوع . ولسنا بحاجة إلى أن نشير إلى الصعاب الطبيعية التي كانت تحول دون نقل الجسد ، فقد كان هناك حرس قوي ، وكانت المدينة غاصة بالزائرين والحجاج من كل فجاج الارض ، وكانت الخيام منصوبة في كل الطرقات والشوارع ، وكانت الليلة بدراً ساطعاً ، فلم يكن مستطاعاً حيال كل هذه العوامل أن يتسلل التلاميذ ليحملوا جسد سيدهم و يسيروا به في طرقات اورشليم ، والناس عنهم غافلون، في أورشليم المدينة التي عجّت بساكنيها في موسم عيد الفصح .

ثالثاً — ومنذ البداية اظهر المسيحيون في حياتهم قوة المسيح المقام . ولاجدال في أن حدثاً عظيما غريباً هو الذي بدّل تلاميذ يوم الجمعة العظيمة الخائفين المذعورين الجبناء ، ليكونوا دعاة وزعماء جسورين كما نراهم في سفر أعمال الرسل . وقد عزوا كل هذا التغيير إلى قوة قيامة يسوع المجددة . ومنذ البداية نرى الكنيسة الفتية تحفظ اليوم الاول من الاسبوع — يوماً للرب — لذكرى القيامة . وقد كان هذا نظاماً مستحدثاً ، لان يوم الاحد هو غير السبت اليهودي ، وقد خصصه التلاميذ الاولون من أول الأمر لذكرى قيامة يسوع من الموت ، وهو دليل على تأصل عقيدة القيامة في نفوسهم ، دليل غير مسطور لا يمكن أن تمحوه الايام .

والعبادة المسيحية التي نسميها « كسرالخبز» أو العشاء الرباني ، ليست ذكرى كئيبة حزينة ، تنوح على سيد مائت غائب ، بل هي عبادة شكر على بركات وخيرات فاضت من يد مخلص حي منتصر . وكذلك تدلّ المعمودية كما شرحها بولس الرسول (رومية ص٦:٣٤) على حقيقتين ، هما موت المسيح

وقيامته ، لانه يشير إلى المعمودية كأنها موت مع المسيح وقيامة معه .

وان بقاء الكنيسة وحيويتها حتى اليوم ، ومقاومتها للهجمات التى توالت عليها من الداخل ومن الخارج على السواء — كل هذا يثبت انها لا تستمدُّ حياتها من اكذوبة خادعة . ولقد أصرَّ كل المسيحيين مدى أجيال التاريخ على انهم متصلون بربٍّ حيٍّ ، يستمدون منه القوة والتطهير . وقد يقال في معرض التدليل ان حياة المسيحيين الداخلية ليس من السهل الوصول اليها واتخاذها دليلاً يثبت قيامة يسوع . ولكن حتى اذا اطَّرحنا جانباً اتفاق الشواهد التي تبدو ناصعة في حياة الرجال والنساء من كل طبقة وجنس و بلد، فانه يحق لنا القول إن الأخلاق المسيحية قد امتازت عن غيرها ، وقد اختمر بها العالم كشيء جديد لم يألفه من قبل . ولقد أبدى اتباع المسيحية تقديراً دقيقاً للحياة حتى حسبهم خصومهم في أول الأمر سكارى مفتونين .

وان لم يكن المسيح قد قام ، فان التاريخ البشري يكون لغزاً غامضاً . ذلك لان أغزر بركات الحياة وأخصبها قد تناولها الجنس البشري كنتيجة ، مباشرة أو غير مباشرة ، للمناداة بالقيامة . ولو أن هذه البركات الوافرة التي أغدقتها المسيحية على الجنس البشري ، تستند في أصلها إلى فكرة خادعة أو خاطئة ، فان الكون كله يكون لغزاً معقداً غير قابل للحلّ .

رابعاً — والآن نعود إلى شهادة الرسول بولس ، العالم الجامعي النابه ، والنجم اللامع في الفريسية اليهودية ، الذي اختبر — وهو ذاهب في طريقه إلى دمشق في بعثة ليضطهد اتباع الناصري — حادثاً غريباً غيَّر اتجاه حياته كلها وجعله اكبر رسول مسيحي عرفه التاريخ . وقد قال بولس بصريح

العبارة ان المسيح المقام ظهر له في الطريق . وغير خافٍ انه كان رجلا واسع الاطلاع ، لوذعياً بارعاً ، له المام بالكتابات اليونانية القديمة ، واقفاً على وقائع الاصطناع التي يفترضها احياناً التدين الخيالي . وليس من اليسير تضليل رجل مثل هـــذا وخداعه . ولكن حتى لو فرضنا انه قد انخدع ، فهل يحتمل أن ينخدع جميع رفاقه المسافرين معه في الركب ؟ واولئك رأوا نوراً وهـاجاً في رابعة النهار ، وسمعوا صوتاً ، ووقعوا على وجوههم ، ثم نهضوا فرأوا بولس أعمى لا يبصر. ومامن شك في أن زعماء الفريسيين وقادة اليهود قد استنطقوا اولئك الرفاق، وضيّقوا عليهم الخناق في الاستجواب والتحقيق ، بعد أن رأوا بولس مضطهد المسيحية، المتقد بالنار، ينقلب فجأة ليصير تابعاً من اتباع المسيح. ولو ان بولس كان يقصّ رواية خيالية لظهور السيد له، لاستطاع خصومه من اليهود انتهاز الفرصة ، واقناعه بألسنة الشهود بكذب دعواه ، وتفنيد روايته وفضحه إلى الأبد . وترى لماذا لم يُستحضر رفاق الطريق إلى دمشق لتفنيد أقوال بولس وتكذيبه ؟ ان الجواب الوحيد على هذا السؤال هو ان بولس كان يروي اختباراً واقعياً حينما قال انه أبصر المسيح المقام في الطريق إلى دمشق وهو يصف هذه الواقعة وصفاً رائعاً جليـــاً امام فستس الوالي الروماني (اع ص ٢٥) . ولم يقدر المدّعون عليه من اليهود الحاضرين ان يفندوا روايته .

وهناك فئة قليلة من الناقدين ما فتئت تستمسك بالنظرية الكاذبة التي يسمونها « نظرية الإغماء » ، وفيها يزعمون ان المسيح لم يمت على الصليب، ولكنه أفاق من اغماء بعد أن وضع في القبر البارد ، وفي اليوم الثالث تسلل

من أورشليم ليتابع عمله في مكان آخر . ولا تستند هـــذه النظرية الباطلة السخيفة إلى أوهى الادلة. وهي تناقض تاريخ المسيحية كله ، وتناقض رسائل الانجيل ، بل لم تخطر على بال أحد من العقلاء ، حتى بين أعداء ر بنا الذين اضطهدوا اتباعه اضطهاداً شنيعاً. ولو ان يسوع لم يمت ، وأُغمي عليه فقط ثم أفاق ، فانه لا محلّ للقيامة، و يكون الموت قد صرعه في آخر الأمر .

* * *

ولا تقول العقيدة المسيحية ان الانسان ينبغي أن ينتظر إلى ما بعد الموت حتى يرث الحياة الابدية، ذلك لان يسوع وعد الانسان بهذه الحياة الأبدية وهو على الارض . وكل من يمتلىء بالروح القدس، يستيقظ إلى جدّة الحياة وهو حيٌّ بعد على الارض . وقد كتب بولس : « ان كان روح الذي أقام يسوع من الاموات ساكناً فيكم ، فالذي أقام يسوع من الاموات سيحيي أجسادكم المائتة ايضاً بروحه الساكن فيكم »(رو ٨:‏١١).

فقيامة الانسان إذاً ليست مجرد حادثة موضوعية ستقع في المستقبل ، ولكنها موضوع إلهام وجهـــاد روحي شاق، ولا ينالها الانسان إلا بالعناء ، والاشتراك مع المسيح في آلامه ، والموت عن الخطية كما مات هو . وتخلع المسيحية على الحياة الاخرى ثوباً جديداً من حيث انها تحيلها من مجرد رجاء خافت محوط بالظلال ، إلى يقين مؤكد وثقة لا يرقى اليهـا الشك . وهي تزودنا بما قصرت عنه الفلسفة ، أي الاحساس بوجود علاقة شخصية بيننـا وبين شخص يقرب منا، اتخذ طبيعتنا البشرية وقهر بها صولة القبر. والمسيحي

واثق من الخلود لان المسيح قام من الأموات ، ولان الروح الذي أقام يسوع من الاموات ساكن فيه ، ويؤكد له الحياة الابدية .

ولا يتسع المقام الآن لوصف ماهية وطبيعة الحياة الاخرى * . وحسبنا ان نقول الآن ان الحياة فيما وراء القبر تتصل اتصالا وثيقاً بحياتنا هنا على الارض. والذين يطلبون البرّ على الارض ستكثر لهم الفرص في حياة المستقبل لبلوغ البر . أما النفس التي هي عدوة البر على الارض ، فانها سوف تجد في حياة المستقبل هوة سحيقة قائمة بين الخير والشر . والذين يجانبون الخير وهم على الارض ، ستنعدم أمامهم الفرص لبلوغ هذا الخير في الحياة الاخرى .

والآن نجيء إلى الخاتمة الخطيرة : وهي ان حياة المستقبل ستكيّف وفق حياتنا هنا على الارض ، وان كل أقوالنا وأفعالنا خالدة باقية . لان الاقوال تلد الافعال ، والافعال تلد الاخلاق ، والاخلاق تقرر المصير .

---

* ان أردت المزيد فاطلب من هذه الدار كتاب « ماذا بعد الموت ؟ » بقلم الأستاذ حبيب سعيد

المسيح ابن الله

كنت على سفر في قطار ببلاد الهند، وقد أفسح لي شاب لطيف مكاناً الى جواره في احد أركان العربة بالقطار، وسرعان ماتبادلنا الحديث وقال لي : لديّ سؤال يحيرني منذ أمد طويل كنت معتزماً أن أوجهه لأحد رجال الدين مثلك : وهو كيف يمكنكم معشر المسيحيين أن تقولوا إن يسوع ابن الله ؟ . إننا كمسلمين نجد صعوبة كبيرة في فهم ذلك . نحن لا نحب أن نعتقد أنكم كفار، ولكننا لا نستطيع هضم هذا القول. هل كانت لله زوجة..؟ ام ماذا ؟

وسؤال صديقي الشاب من الأسئلة العويصة التي تحيّر افكار اخواننا من المثقفين المسلمين . انهم يجدون في المسيحية الكثير من الخير، والكثير من أوجه الشبه مع عقيدتهم . انهم يسلّمون بأن المسيح نبيٌّ ، ولكن القول انه ابن الله هو في نظرهم كفر وشرٌّ رهيب، لأنهم يرون امامهم انساناً ، ليس هو الله ولكنه معادل لله . ونحن كمسيحيين نشفق كثيراً على اصدقائنا في هذه المشكلة الصعبة، إذ أننا نؤمن مثلهم باصرار بوحدانية الله الواحد الاحد الذي لا شريك له . ولكن الصعوبة التي يلاقونها عند محاولة التوفيق بين هذه الحقيقة وبين التعاليم الأخرى في الايمان المسيحي ، ناشئة عن كيفية تفكيرهم في ذات الله . فالله عند المسلم هو قبل كل شيء الواحد

الأحد الذي ليس له كفؤ أحد—لا شريك له، ولا يدانيه أحد في بهاء مجده وعزته وجلاله . كلُّ مَن سواه خليقته ومن صنع يديه . و بينه و بينهم هوة سحيقة لا يمكن عبورها. و باختصار تقوم فكرة المسلم عن الله، على أساس من التنزيه ، أي السمو الالهي المنقطع النظير .

تلك الفكرة عن ذات الله ليست قاصرة على الاسلام، ولكنها من العقائد الموروثة عن الاجيال القديمة في التاريخ. وهي تحتل مكانة كبيرة في تعاليم انبياء اليهود ، كما في سفر اشعياء « انا الرب وليس آخر. لا إله سواي » . وتاريخ الأمة اليهودية كله — كما تسجله أسفار العهد القديم — يفرض هذه الحقيقة القوية ، و يعمقها في قلوب الناس .

ولكننا نجد أن الانسان على اختلاف مذاهبه، في كل جيل على مدى التاريخ ، مع تسليمه بهذه الحقيقة حاول بطرق متعددة أن يفسح مكاناً في عقيدته ، لحقيقة أخرى تتصل بذات الله ، يمكن تسميتها في المصطلحات اللاهوتية «بالحلول الالهي». فنحن نشعر و ندرك بفطرتنا أننا في الله نحيا و نتحرك ونوجد، ولانه الخالق والضابط كل شيء في الكون، و بدونه لا يكون شيء مما في العالم ، نشعر بأن طبيعته الالهية تحلُّ بشكل ما في خليقته كلها . فنسمة الحياة فينا نستمدها منه، وما نسيج أبداننا ومادتها إلا تعبير عن إرادته الخالقة المبدعة.

ومن الطريف أن نجد في بلاد الهند كلاً من المجتمعين الكبيرين بها ، يؤيد حقيقة واحدة من هاتين الحقيقتين الاساسيتين. فبينما يقوم الدين الاسلامي

على أساس من التنزيه الالهي ، تدور تعاليم الهندوس المتعددي الشعب حول حقيقة الحلول الالهي. فنور الشمس والقمر والنجوم ، والقوة المنبثقة باستمرار في الانهار الدافقة ، والمد الجزر في أمواج المحيط ، والتتابع العجيب في حياة الشجرة والزهرة ـ كل هذه مظاهر للقوة الالهية ونشاطها . وعلى هذا النمط يجادل الهندوكي : أليست هذه الاشياء أهلاً للعبادة ؟ وهكذا نجد المعتقد الهندوكي يرى الله في كل مكان ، وفي كل شيء ، وفي أي شيء ، يشترك في جوهر الله ذاته .

ولا شك في أن هاتين العقيدتين تمثلان وجهين من الحقيقة ، ولكن تكمل احداهما الاخرى، كما ان احداهما تفتقر إلى التوافق مع الآخرى، و إلا تشوه الحق ذاته، ونشأ عن ذلك اسوأ النتائج. فالنتيجة المنطقية لعقيدة الحلول الالهي وحدها هي ان كلاً منا يستطيع القول « بما اني مظهر لله .. فأني أنا الله ». واطالما وجدت هذه الدعوى لها انصاراً . وعلى ذلك فاننا إذا اخذنا بهذه العقيدة وحدها، نعطي للانسان أهمية فيها افراط إلى حد كبير ، ونمنحه من المجد ما يبعده عن دائرة اتكاله على الله وتبعيته لخالقه .

ومن الناحية الاخرى فان المبالغة في الاصرار على عقيدة التنزيه الالهي، تقودنا حتماً إلى التحقير من شأن الانسان واعتباره في مرتبة وضيعة خلافاً لقصد خالقه. نضع الله بمقتضى هذه الفكرة في مكانة بعيدة، فوق مستوى خليقته، بحيث تنفصم العلاقة بينهما ، وتغدو طرقه بعيدة كل البعد عن طرقنا ، ولا

نأمل أن نفهمها ، ونشعر بأنه يجب أن نسلّم تسليماً مطلقاً بكل ما يحيق بنا .
وهذه قسوة مذهب القدَرية التي تقطع عصب الاجتهاد ، وهو علّة الضمور والتدهور الروحي ، ومن نتائجه القنوط والفشل اللذان يضيقان الخناق على عقول الكثيرين ، كلما بدأوا في مشروع يدعو إلى التجديد أو الرقي . ومن الشائق أن نلحظ من الوجهة التاريخية كيف حاول كلٌ من الاسلام والهندوكية، بطرق شتى ، إدخال بعض التعديل في عقائدهم الدينية . ومن ثم نرى نهوض الصوفية في الاسلام، وظهور العبادات التوحيدية في الهندوكية. ولقد ساعدت هذه المحاولات المتباينة على ايجاد فِكرَ دينية اكثر اتزاناً وملائمة، ولكنها لم تكتسب أتباعاً كثيرين، ربما لانها قامت على أدلة تعتمد على الحجة والبرهان، لا على أساس راسخ من الحقيقة التاريخية .

وهكذا نجد حاجة ماسّة الى دين يمكنه أن يوفق بين الحقيقتين الكبيرتين، وهما الحلول الالهي والتنزيه الالهي، ويصورهما كلاً لا يتجزأ. وهذا هو ما تزوّدنا به عقيدة الثالوث الاقدس التي تتوج هام الدين المسيحي . فنحن كمسيحيين نعبد من الناحية الواحدة إلهاً منزهاً خالقاً وأباً لجميع البشر. ومن الناحية الاخرى نعبد الله الروح القدس الساكن فيمن يعيشون له وفيه . وبهذا نحتفظ بعقيدة الحلول الالهي أيضاً. بينما نجد في حقيقة التجسد المجيدة ماينزع هاتين العقيدتين من نطاق الفلسفة المجردة ويجعل لهما صلة حية بنسيج الحياة البشرية، لان « الكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً » .

وإذا كان الله منزهاً حقاً ، فاننا لن نقدر أن نعرفه كما هو، ما لم يعلن لنا ذاته بالطريقة الوحيدة التي يمكن أن نفهمها : بأن يتخذ لنفسه هيئة البشر . وإذا كان الله منزهاً ومحباً أيضاً في الوقت عينه كما نؤمن ونعتقد ، فاننا نجرؤ على القول انه كان يتحتم عليه أن يكشف لنا عن نفسه بهذه الطريقة وحدها . ونحن نؤمن حقاً بأنه صنع هذا فعلاً .

ان طريقة التجسد التي اختارها الله، ليكشف لنا بها عن ذاته، هي التي أماطت اللثام عن عمق المحبة الالهية ومجدها . لانه كان يستطيع لو أراد ان يطرق عالمه في هيئة مخلوق بشري مكتمل النضوج، نسيجه خليقة جديدة، طليقة من كل صلة مباشرة بالانسان الفاني. كان يمكنه أن يصنع ذلك ولكنه اختار طريقة اكثر صعوبة، واكثر عظمة ومجداً ، اتفقت تماماً مع غرضه ، ومع مقاصده نحو مستقبل الجنس البشري . لأنه اختار أن يحمل على نفسه جسداً . وبهذا عمل من جانبه على ان يتحد مع طبيعتنا البشرية ، حتى يمكن في النهاية ، عند ما تتطهر بذلك طبيعتنا البشرية ، وتخلص من شرها واثمها ، ان تتحد بدورها مع طبيعته الجيدة .

لهذا السبب اختار الله أن يصبح انساناً في شخص الطفل يسوع ابن العذراء . فترتبت على ذلك نتيجة عظيمة مدهشة: طبيعتان كاملتان سليمتان، الطبيعة الالهية والطبيعة الانسانية في يسوع ، اتحدتا بطريقة سرية مدهشة في كائن واحد اسمه يسوع المسيح . وكان هذا الاتحاد تاماً وكاملاً بحيث

يستحيل التمييز أو الفصل بين الاثنتين . وتلك الشخصية الفريدة الناتجة عن هذا الاتحاد العجيب، هي التي يُبشر بها بين كل الامم، وفي كل اللغات كخلاص للعالمين .

ولا شك في أن الغرض العظيم الذي وضعه الله نصب عينيه وهو إنقاذ الانسانية وافتداؤها عن طريق التجسد ، هو الذي حدا به طوعاً لأن يقبل على نفسه القيود التي هي من مقتضيات الطبيعة البشرية . فقد كابد يسوع الانسان، الجوع والعطش، وانهكته أسفاره واتعابه ، واكثر من ذلك اختار حياة الفقر والحرمان ، فعاش كأفقر واضعف انسان، واختار اصدقاءه ، لا من بين الأثرياء وذوي النفوذ ، بل من عامة الشعب في المدن والقرى على تلال اليهودية . و بفضل مشاركته الكاملة لأنسانيتنا وطبيعتنا اختار لنفسه اسم « ابن الانسان » ، فكان يشير إلى نفسه مراراً وتكراراً بهذا اللقب الفريد، فوضع نصب أعيننا مثلاً للانسان الكامل في سلوكه الانساني ، وكانسان رسم لنا طريق العبادة والطاعة الواجبة على المخلوق نحو خالقه .

ويجب علينا ألا نغفل عن المعنى الذي انطوى عليه لقب «ابن الانسان» . فمَن غيره في تاريخ البشرية يمكنه أن يجاريه في هذه الدعوى؟ انه لقب السمو والرفعة بين البشر، وهو دون سواه يقدر أن يدّعي بانه ممثل الجنس البشري بفضل انسانيته الكاملة . فهناك ملوك دانت لهم الرقاب ، وجبابرة من رجال السياسة والحكمة ، علماء وانبياء ، وقساوسة ورسل من الله ، ولم نسمع عن

واحد من قبله أو من بعده أحسّ في شخصه الكفاية التامة لان يمثل البشرية كلها . وهذه الحقيقة في ذاتها تطبع ابن الانسان بطابع الشخصية الفريدة ، ففيه وحده نجد الشعور بالكمال المطلق ، والضمير الذي لا تشوبه شائبة ، بينما اعظم القديسين والانبياء في العالم يقرّون بخطاياهم وذنوبهم . فيه وحده نجد الشخص الذي يصلح أن يكون همزة الوصل بين الله والبشر . وكل من له عين تبصر لا ينكر انه هو الذي يهيء لنا هذه الصلة في شخصه . فالمسيح وهو شاعر بانسانيته الكاملة ، لم يكن أقل من ذلك شعوراً بألوهيته . صحيح انه لم يعمد الى المناداة في العالم كله بانه الاله المتجسد ، لانه لم يكن من تدبيره أن يفرض أي دعوى دون أن يفتح البصائر لادراك المزايا الكامنة في شخصه، والتي تكشف لعين الايمان ألوهيته . ولكن القول مع بعض الجهال بأنه لم يعلن عن ألوهيته ابداً ، انما هو تجاهل لشهادته الواضحة في حياته وتعاليمه . ذلك لانه :

(١) أعلن فعلاً انه المسيح ، كما في بشارة يوحنا ص ٤ : ٢٥ و ٢٦ « قالت له المرأة أنا أعلم أن مسيا الذي يقال له المسيح يأتي . فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء . قال لها يسوع أنا الذي اكلمك هو » .

(٢) أعلن انه ابن الله ، كما في بشارة يوحنا ص ٩ : ٣٥ و ٣٦ « وقال اتؤمن بابن الله . اجاب ذاك وقال مَن هو ياسيد لأؤمن به : فقال له يسوع قد رأيته والذي يتكلم معك هو هو » .

(٣) اعلن انه كان منذ الازل كما في بشارة يوحنا ص ٨ : ٥٨ « قال

لهم يسوع الحق الحق اقول لكم قبل ان يكون ابرهيم انا كائن » .

(٤) أعلن أيضاً انه واحد مع الله ، كما في بشارة يوحنا ص ١٠ : ٣٠ « أنا والآب واحد »، ص١٤: ٨ و ٩ «الذي رآني فقد رأى الآب» و ص ١٧: ٥ « والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم » .

(٥) أعلن انه حالٌ في كل مكان ، كما في بشارة متى ص ١٨ : ٢٠ « لانه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم » .

(٦) أعلن انه قادر على كل شيء ، كما في بشارة متى ص٢٨ : ١٨ حيث إستطاع أن يخرج الشيطان الذي لم يستطع أن يخرجه التلاميذ .

(٧) وعد بان الصلاة باسمه تستجاب ، كما في بشارة يوحنا ص ١٤ : ١٣ و ١٤ « ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب بالابن . إن سألتم شيئاً باسمي فاني أفعله ».

وعلاوة على ما أعلنه فانه . . .

(٨) قبل من اتباعه أن يعبدوه كاله ، كما في بشارة متى ص ١٤ : ٣٣ « والذين في السفينة جاؤا وسجدوا له قائلين : بالحقيقة أنت ابن الله » ، و بشارة متى ٢٨ : ٩ « فتقدمتا وامسكتا بقدميه وسجدتا له » ، و بشارة يوحنا ص ٢٠ : ٢٨ « اجاب توما وقال ربي وإلهي » ، وص ٩: ٣٨ «فقال أؤمن يا سيد وسجد له » .

(٩) ابدى سلطاناً على عناصر الطبيعة ، كما في بشارة لوقا ص ٨ : ٢٤ « فقام وانتهر الريح وتموج الماء فانتهيا وصار هدوء »، وسلطاناً على ناموس الخليقة كما في معجزتي تحويل الماء الى خمر واشباع الخمسة آلاف .

(١٠) كان له سلطان على الموت، فأقام ابنة يايرس وابن أرملة نايين ولعازر من بيت عنيا .

(١١) وقام هو ذاته من الاموات كما في بشارة متى ص ٢٨ – وفي النهاية لقد مارس أخصّ السلطات التي يتميز بها الله، وهي مغفرة الخطايا، كما في بشارة لوقا ص ٧ : ٤٧ و ٤٨ ، وص ٢٣ : ٤٢ و ٤٣ ؛

وهكذا نجد أننا نواجه شخصية عجيبة تتمثل فيها انسانية كاملة. و بطريقة لا يمكن أن نصفها، كما انه يستحيل أن نخططها ، نراها ممتزجة بالطبيعة الالهية، فنضطر في النهاية أن نعترف مع بولس الرسول كما في الرسالة الى أهل كولوسي ص ٢ : ٩ « ان فيه يحلُّ ملء اللاهوت جسدياً » . وهو على هذا الاساس الوسيط الوحيد بيننا و بين الله ، وفيه وحده يتحد الناسوت واللاهوت .

و بفضل الانسانية الـكاملة في هذه الشخصية الفريدة، يبدي لنا المسيح حالة من الاعتماد على الله ، وموقفاً من الطاعة والعبادة الواجبين على الانسان من نحو خالقه . ولذلك يعلن عن نفسه انه الابن ، والله أبوه ، وهكذا نصل في الختام الى جواب نسوقه لصديقنا الشاب رداً على سؤاله: كيف نؤمن نحن المسيحيين بان المسيح هو ابن الله . ان يسوع المسيح ، الله في الجسد ، هو انسان حق و إله حق ، هو ابن الله وهو ايضاً ابن الانسان .

هذا هو الذي يخلع معنى خطيراً على موته الكفاري على الصليب ، فمنذ بدء التاريخ وسجّل الاستشهاد حافل بقصص الميتات الرائعة التي ماتها كثيرون من الابطال في سبيل غيرهم ، ولـكن موت المسيح يقف وحده بارزاً في السجل عن الآخرين ، إذ انه ليس مجرد موت إنسان على يد طغمة من الاشرار ، ولكنه ابن الانسان الذي فيه تتمثل الانسانية كلها. هو يأخذ على نفسه اخطاء وآلام الجنس البشري قاطبة ،هو حمل الله الذي يرفع خطايا العالم.

إننا كمسيحيين لا نستطيع أن نشرح بالضبط كيف يطهرنا هذا الايمان من الخطية والاثم ، ولـكننا نعرف ونشعر بفاعلية ايماننا في هذه الناحية من الحياة . إن الايمان برحمة الله الواسعة ، كما يعلمها لنا المسيح على الصليب ، يساعدنا أن نعرف أن الله يغفر فعلاً لمن يتوب اليه ، وهو اكثر من ذلك يمدّنا بقوة روحية نكسر بها شوكة الخطية، وتخرجنا ظافرين من تجاريب هذا العالم. اننا نؤمن بان هذا الخلاص هو نتيجة لتأثير الله الروح القدس في قلوبنا. فـكيف إذن نقصر في تمجيد إلهنا المحب الذي،وهو القادر على كل شيء، المنزه السامي الرفيع ، قد اختار أن يقترب منا و يتماشى مع حياتنا، فجاء الينا وحلّ وسطنا في شخص يسوع المسيح .

اللهم في سموك وأعلا سناك ، اللهم المتجسد ، اللهم الحالُّ بيننا ، الواحد الاحد ، الثالوث الاقدس في وحدانية . اللهم الآب والابن الروح القدس ، إننا نسجد أمام عرشك العظيم، ونسبح لك الآن والى الابد ، آمين .

الصلاة

هلاّ فكرت في هذا الشيء العجيب : إن الناس تصلي في جميع انحاء العالم ومنذ فجر التاريخ ، بل وقبل ذلك بدون شك . وإن الصلاة فرض في كل ديانة على الارض حتى في البوذية التي لا تؤمن بالله ؟

ومع ذلك فهناك كثيرون يُنقصون من قدر الصلاة ، بل يشكّون في وجود الله . وحتى على فرض وجوده يشكّون في أن لديه متسعاً من الوقت أو الرغبة ليستمع الى صلوات لاتقع تحت حصر يصعدها البشر من كل قارات العالم . وهناك فريق يسلمون بان للصلاة بعض القيمة الذاتية من حيث انها ترفع المستوى الروحي لدى المصلين ، ولكنهم لا يقطعون بأن لها قيمة موضوعية من حيث وصولها الى آذان إله يسمع ويجيب .

وللصلاة في حياة الانسان مكانة مبجلة ، بحيث يستحيل على المرء أن يتصور إمكان احتفاظها بمكانتها العالمية على مدى العصور ، لو لم تكن على شيء عميق من الحق . وما كان للانسان أن يثابر على التوسل إلى الأبد لو لم يكن هناك إله يسمع ويجيب . فما كانت غريزة الجوع لتتشبث بالانسان لو لم يكن هناك طعام يكفيها . وما السبيل إلى التنفس لو لم يكن الهواء . وهكذا غريزة الصلاة كانت أحرى ان تموت منذ عهد بعيد، لو لم تكن هناك صلة باله يسمع ويجيب .

إننا نؤمن بالله لاسباب أخرى غير استجابة الصلوات ، ولكن بدون الايمان بالله لا يستطيع الانسان أن يثابر على الصلاة . فاذا كان لديك أي شك في وجود الله، فانّنا نسألك أن تقرأ هذا المقال باعتناء، ثم حاول الصلاة بالطريقة المقترحة . فاذا ثابرت عليها في اتضاع وثقة، فاننا نعلم انك ستصبح مؤمناً بأن الله موجود ، وانه قريب من كل انسان يحاول أن يخدمه ويحبه .

هناك أنواع عديدة ورتب مختلفة للصلاة في العالم اليوم . ولكن اسمى رتب الصلاة تتضمن دائماً حقائق عظمى . وتتطلب من المصلي أن يؤمن باله شخصي تربطه به صلة شخصية روحية ، وأن يؤمن بأن روحه تتصل بروح الله . وكل مَن ينظر إلى الله كمجرد قوة خالقة، يستحيل عليه الشعور بصلة بينه وبين الله . وكل انسان يصلي بحق ويشعر بصلته بالله ، لا يشك مطلقاً في وجود الله كشخص حيّ دائم الوجود .

وتتضمن الصلاة وجود رابطة معينة بين الله والانسان . ولن يستطيع انسان أن يصلي صلاة صحيحة ، يشعر فيها باقتراب الله منه ، ما لم يؤمن باننا في الله نحيا ونتحرك ونوجد . انه أقرب الينا من انفاسنا ، وألصق بنا من أطراف الجسد .

وتقتضي الصلاة منا ألا نفكر في العالم كمعجزة ميكانيكية، يقوم بوظيفته على مقتضى نواميس ثابتة لا تتغير . لان تلك الفكرة العلمية عن الكون ، التي استهوت كثيرين ، لا تقوم على أساس من الحقيقة . ومنذ زمن ليس ببعيد خيّل أن هذه الفلسفة المادية قضية سليمة . وما زال لها حتى اليوم انصارها من العلماء . ولكنها في السنوات الاخيرة قد سقط اعتبارها وزال حقها. ذلك

لان اختيار بعض مظاهر معينة في الكون، والتركيز حولها في مباحث واسعة، أدى الى استنتاج خاطىء بأن قواعد العلم تتحكم في عالم الوجود .

ان الله يعلن لنا ذاته في العالم بواسطة ما نسميه نواميس الطبيعة. ولكن هذا لا يعني أن احكام هذا الناموس لاتترك مكاناً للصلاة. و يفترض كثيرون صحة هذا الرأي ، ولكنه في الواقع فكر خاطىء .

ولنفكر قليلاً في ماهية القانون الطبيعي : إذا نحن أخذنا علماً تجريبياً كالكيمياء مثلاً ، فاننا نلحظ أن عناصر معينة ، اذا مزجت بنسب محددة ، أنتجت لنا نتيجة واحدة. والكميات عينها من المواد عينها إذا مزجت بنفس الاسلوب يجب أن تؤدي دون تغيير الى النتيجة عينها . ونحن اذا عممنا هذا المثل نستخلص فكرة عن قانون الطبيعة. إن قانون الطبيعة لا بدّ أن يعرّف بعبارات شرطية أو فرضية ، فاذا حدث شيء معين ، فان نتيجة لا بد أن تترتب على ذلك .

ومن سوء الحظ أن هناك فكرة عامة ـ ولو أنها خاطئة ـ تقول ان الشروط المطلوبة لتنفيذ قانون من قوانين الطبيعة يجب أن تكون مادية . وهذا يقود طبعاً الى زعم خاطىء بأن القانون المادي لا يستجيب الى أعمال الروح. واذا صحّ هذا ، فان أية حركة مادية سواء أكانت في ذرات المخ أو في كوكب من الكواكب، انما تنجم فقط عن حركة مادية سابقة أو ملازمة. ولكن يجب ألاّ يغيب عن بالنا أن سلطان القانون قائم في مملكة العقل بالقوة عينها التي يحكم بها في مملكة المادة . فاذا كانت الاستجابة الالهية لصلاة من أجل منافع مادية ، تدخلاً في سير الظواهر المادية،فان الاستجابة

لصلاة من أجل نعم روحية هي أيضاً تدخل في سير المظاهر الروحية . وكلاهما اعتداء على القانون سواء بسواء .

والادلة شبه العلمية التي تناهض قوة الصلاة ، انما تقوم على ادعاء بأن قوانين الطبيعة معروفة تماماً . وهذه الفكرة لا تطابق الواقع . فان الانسان يجاهد على الدوام ليكشف الاسرار المكنونة في الكون . وما زال هناك الكثير من الخفايا والاسرار التي تحيّر العقل البشري. والنجاح يكلل جهود العلماء يوماً بعد آخر . ونحن الذين نعيش على عتبة الاكتشافات الحديثة عن الذرة ، نرى انه من خطل الرأي أن نحدّ من قوة سلطان الانسان على الطبيعة. ونحن لا نعرف حتى اليوم عن الاجرام السماوية سوى النذر اليسير. وما نعرفه عن الارض وعن القوى العظيمة التي تسيّرها أمور تافهة . و إلى أن نلمّ الماماً تاماً بعالمنا الذي نعيش عليه، ليس لنا حق البتة في أن نجزم بأن ظاهرة ما تتفق مع قوانين الطبيعة . والعلم الحديث يزداد تواضعاً في موقفه حيال الحقائق الدينية ، وان كان اشباه العلماء الذين يضعون صولجان الكبرياء والعجرفة في يد العلم ليسوا قليلين .

وليس هناك ما يبرر الادعاء بان قوانين الطبيعة تزعزع الثقة في الصلاة. ونحن حين نستند في انكارنا حقيقة الصلاة إلى ثبات القانون الطبيعي ، فكأننا نفترض ما لا نعلمه، لكي ننكر ظواهر نستطيع أن نراها يقيناً . فان ثبات القانون الطبيعي وعدم تغيُّره إن هو إلا فرض . ونحن كلما تعمقنا في أي فرع من فروع العلم، نلاحظ استثناءات ظاهرة لهذا الثبات المزعوم المنسوب لقوانين الطبيعة. وعند اكتشاف حقائق جديدة يبطل التعميم القديم، وتحلُّ

مكانه حقائق مفردة . إن معرفتنا الحالية للعالم المادي انما تقوم على أساس مشاهدة حقائق معينة . ولـكن عند ما تلوح في الافق حقائق أخرى نشحذ الأذهان لوضع القوانين الجديدة .

و إذا حكم قانون العلة والمعلول على الصلاة بأنها تخالف المنطق، فلا غرو في انه يعطل حرية الارادة التي يسلـم بها الجنس البشري كله كحقيقة مقررة في الحياة الاخلاقية . وشهادة الملايين من البشر في كل حقب التاريخ ، واقرارهم عن بقيمة الصلاة ، تجعل من المستحيل الحكم على الصلاة بأنها شيء لا علاقة له بالحياة . انه الحق كل الحق في انها جزء من النظام الطبيعي في العالم ، لها ما له من رسوخ وثبات . وحينما تتجلى إرادة الله على وجه محقق لا ريب فيه ، كما في قانون الجاذبية أو دوران الأرض ، فانه لا يكون مجال للصلاة ، لان الصلاة نفسها هي قانون للحياة ، يعمل في توافق وتناسق مع باقي قوانين الطبيعة . وغريزة الصلاة قانون للحياة شامل ، كسائر الغرائز الاخرى مثل الاكل والشرب والتنفس .

ولـكن كيف تعمل الصلاة؟ لنأخذ على سبيل المثال حالة شخص مصاب بمرض خطير ، اصبح الموت منه قاب قوسين أو ادنى. فان الصلاة تأتي بالمتألم إلى صلة أقوى وأشد التصاقاً بالحياة الالهية ، وتمده بطاقة من النشاط الحيوي مع قوه جديدة حية . فالصلاة من أجل صحة المريض لم تتناقض مع قانون طبيعي ، ولكنها بعثت الحركة في قانون جديد غير الظروف القائمة، وسارت بالمريض في طريق نحو الشفاء . وكلنا يعرف أمثلة حية مماثلة في اصدقائنا ومعارفنا . فكثيراً ما يجزم نطس الاطباء بأن الموت لا بد مخيم على حياة طفل

مريض مثلاً ، فنرفع الصلوات من أجله ، وندفعه الى تماسٍّ مع الحياة الالهية فتدب الحياة في أوصاله ، و يرفل في ملء من الصحة والعافية .

و يجب أن نحذر من التفكير بان الصلاة هي محاولة لتغيير إرادة الله وارغامها على أن تؤدي لنا رغبة نريدها نحن ولا يريدها الله . فالصلاة إن هي إلا عمل يرفع النفس البشرية و يجعلها في تماس مع الروح السرمدي، بحيث يستطيع الخير الذي يريده الله أن يتسرب إلى النفس البشرية. و إذا تمكن الانسان بفضل إلمامه بالقوانين الطبيعية من التحكم في قوى الطبيعة واستعمالها في بلوغ مآربه ، فهلاّ يمكننا أن نتصور في ميدان القوانين الروحية قوة عجيبة نستطيع بها أن نحقق أسمى رغبات الجنس البشري . إننا في الصلاة ننشد أن تنسجم ارادتنا مع ارادة الله ، بحيث نستطيع أن نتعاون معه عز وجل في تحقيق أغراضه العظيمة نحو الانسان .

و يمكننا أن نختبر قيمة الصلاة في مجالين عظيمين للتجربة : فنحن نعلم أن الانسان يجب أن يعمل و يجد ، فهل تساعده الصلاة في كده وكفاحه ؟ ونعلم أن الانسان كمخلوق روحي يجب أن يسعى لتكوين شخصية خالدة ، فهل للصلاة تأثير ما في بناء الشخصية ؟

يعتذر بعض الناس عن اداء واجب الصلاة بقولهم إن الجد والاجتهاد هما نوع من العبادة ، وان الله يفضل أن يستيقظ الانسان ليكد و يكدح من أجله، من أن ينصت له وهو يتلو أدعيته الطويلة. ولكن لماذا نكدح أصلاً ؟ أليس لاننا راغبون دائماً في بلوغ أسمى الممكنات في الحياة ، مادية كانت أو عقلية أو روحية . فاذا صح ذلك فان الغرض الاساسي من وجودنا ليس هو

العمل بل الحياة . والرسالة الجيدة للصلاة تدعونا لأن نترك الاشياء التافهة على هامش الحياة ، وننتقل الى صميم الحياة ذاتها . و بغير الدعوة الملحة الى الصلاة نمسي مجرد كادحين في أعمال شاقة، مستعبدين من أجل رغبات مادية، لاهين عن موارد الخير العميقة في نفوسنا، والمقتضيات الجوهرية في حياتنا الروحية. فكما يسدُّ الاكل والشرب النقص الناشيء من تعب الابدان ، كذلك نجد في الصلاة التي تنسجم مع الحياة الالهية، تجديداً لقوى النفس من يوم الى يوم. ومن الحقائق التي لا يمكن انكارها أن الشخص المصلي اكثر نجاحاً في عمله اليدوي أو الفكري ممن لا يصلي، لانه يملك في حياته الاتزان والسلام ،وهما قوام الكفاية والاقتدار في الكد والعمل. والظروف الراهنة في الحياة البشرية تتطلب منا شيئاً يؤكد لنا المتقدمون والعريقون في فن الصلاة بأنهم واجدوه في الصلاة . فكما أن المعادن لها درجة تنكسر عندها ، هكذا الانسان. وقد كان في انكلترا في الحرب العظمى الأولى مصنع للذخيرة يتيح فرصة يومية تتفرغ فيها العاملات للصلاة. وكان من المشاهدات الملموسة في ذلك المصنع أن عاملاته كنّ يتمتعن بنضرة في وجوههن ، ووفرة في الحياة المرحة اكثر من غيرهن .

وعلى الانسان واجب يحتم عليه أن يبني داخل نفسه هيكلاً روحياً يلتقي فيه مع الله . وأي انسان يفشل في الاتصال بالله باستمرار في صلاة يومية، يضيع على نفسه فرصة يواجه فيها الاغراض السامية في الحياة . وعالمنا اليوم مليء بالعباقرة من الفنانين والادباء والمهندسين والجنود ، ولكن عصرنا الحالي ينفرد بفقره وخلوه من الرجال المؤثرين ، المحركين للعواطف ، ذوي

القلوب المتواضعة . أليس هذا ناتجاً عن ابتعاد الانسان الحديث عن الله .
وإذا كنا نعلم أن الله كما أعلنه المسيح هو المحبة والنور والحياة ، أي خالق ومخلّص وملهم بني البشر ، فانه يتبع ذلك حتماً ان النفس التي ترابط بجوار القنوات التي يصبُّ فيها الله حياته الموهوبة ، تتشبع بالشجاعة ، وتمتلىء بتلك الشخصية الجذابة التي يصعب تعريفها ، ولكنها من مستلزمات قادة الجيل الحاضر . أفلا ندري بأن عادة الصلاة المنتظمة هي التي صنعت لنا بولس الرسول ، وابراهام لنكان ، والجنرال غردون — على سبيل المثال لا الحصر — هؤلاء وأمثالهم هم القادة الامجاد ممن لا يجوز الشك في عظمتهم و بطولتهم. لقد جعلت لنا الصلاة من هؤلاء الرجال موارد للقوة الروحية كانت تفيض في كل الأوقات ، وخاصة عند ما يأزم الجد وتحين أوقات الشدة والجزع .

كلنا يعلم ان أنفسنا ليست في وحدة ، لاننا نشعر بألم التصادم المخيف بين قوتين تتنازعان في داخلنا . يوجد جاذب مستمر نحو الشر وآخر مثله — وان ظهر لنا انه أضعف — يدعونا إلى الخير والجمال والحق . وكلنا على علم بالشخصية المنقسمة التي يشير اليها بولس الرسول في الاصحاح السادس من رسالته إلى أهل رومية . الصلاة وحدها هي التي تعيد السلام الى شخصياتنا المنشطرة . وهكذا يجب أن تكون الخطوة الأولى في الصلاة هي اعترافنا بخطايانا وتوبتنا الحقيقية عنها — الاعتراف لواحد يفهمنا تماماً و يبعث السلام الكامل في نفوسنا. وعندما نفرغ ذواتنا ونفوسنا امام الله ، نجلب لها سلاماً ، ونشعر براحة وطمأنينة .

وحياتنا الروحية لا يكمل تجديدها في لحظة من الزمن ، ولكنها تصنع في

عناء نفسي، وفي عدم التردد في اختيار الخير ، والتشدد في نبذ الشر والرذيلة. ففي الظلام ، في ساعات الحياة الحائرة ، نقف مترددين مضطربين في مفترق الطرق ، تصبو نفوسنا وتتوق إلى قيادة حكيمة . والصلاة وحدها هي التي تبعث النور الالهي في طريقنا . وحينما يغمرنا الضياء الالهي، تنكشف امامنا الاشياء الصالحة و يزهو بريقها ، بينما يخبو نور الاشيـاء الرخيصة المزخرفة ، فتنقبض إلى تفاهة وزوال .

الصلاة هي أسمى القوى الروحية لانها تنشّط قوة المحبة الجبارة والتعاطف والجود والشهامة . كل هذه تتجمع وتتركز في قوة الصلاة. ولها نتيجتها الملموسة في تطهير الفرد ، وتعميق حاسة العبادة فيه ، وتنقية رغبـاته . والمسيح وهو يعاني آلام النزع ، صـلّى لـكي تجوز عنه كأس الألم بسرعة ، ولكنه لم يطلب في صلاته غير تنفيذ ارادة الله . وقد تسمع أم عن وفاة ولدها الوحيد في ساحة الوغى ، فينفطر قلبها من الحزن والأسى ، ولكنها ترفع قلبها المجروح في صلاة شكر لله ، لان ولدها حُسب جديراً بان يموت ميتة المجد الخالد في ساحة الحق ، وتقدر أن تردد مع القديسين : « سـألتك من أجله الحياة ، فمنحته أنت الحياة الطويلة ، فليتمجد اسمك إلى دهر الدهور » .

يوافق معظم الناس على ان الصلاة تفيد مَن يصلي ، ولكنهم يشكـون كثيراً في قيمة الصلاة التي تقدّم من اجل الغير. فهم يعتقدون ان إلهاً مكتمل الصلاح كما أعلنه لنا المسيح ، لا يمكن ان يسمح ان تتوقف مصلحة أبنائه على وساطة الآخرين . وهل يجوز للحكمة الكاملة والمحبة الالهية ان تضن ببعض الخير أو تمنع بعض الشر عن البشر ، الاّ اذا طلب منها ذلك بعض الناس ؟

ولو كانت الصلاة مجرد طلب اشياء لاصبح هذا السؤال وجيهاً ، ولكنها ليست طلباً أو التماساً ـ وان تضمنت بعض هذا ـ وانما الصلاة هي أن تهب المصلي قلبه لله ، بحيث يستطيع ان يؤدي اكبر مساعدة لصديقه . انها تفتح باباً لله لكي يدخل وينجز ما تريد محبته أن تنجز .

ان الصلاة ترفع من يصلي الى صلة أشد وثاقاً مع الله ، بحيث يصبح الانسان خليقاً بان يتقبل نعماً ما كان ليصل اليها بغير هذه الصلة الوثيقة . ان الله ينشد لنا الخير على الدوام ، ولكننا نعوق عمل محبته بسبب عدم قبولنا. فاذا ما أذعنّا لتأثيره السريع ، ووضعنا انفسنا في صلواتنا تحت تأثيره المباشر ، نصبح نحن ومَن نصلي من أجلهم مستحقين ذلك الخير الذي ما كان ليهبه لنا بغير طريق الصلاة .

ويجب أن نذكر أن الخلائق البشرية ليست وحدات مستقل بعضها عن بعض تمام الاستقلال ، بل هي من وجوه كثيرة يعتمد بعضها على البعض. فنحن في اكثر مصالحنا أهمية، وفى ضروراتنا العادية في الحياة، نعتمد الى حد كبير الواحد على الآخر. وربنا يسوع المسيح في صلاته النموذجية التي نسميها الصلاة الربانية ، صدّق في كثير من عباراتها على مبدأ الصلاة من أجل الآخرين . ووفقاً لما نتعلمه من حياة يسوع يجب علينا أن نتشدد في صلواتنا كما كان يصنع هو لتحرير الآخرين من الخطية ومايترتب عليها من شرّ وألم. ويجب أن ندرك في حزم وجدّ بان الله يعمل دائماً وفي كل مكان للدخول في حياة كل ابن من ابنائه. وانه بواسطة الصلاة من اجل الغير نُحكم الصلة القائمة بيننا وبين الله ، في السعي لقيادة كل نفس إلى صلة معه . والتاريخ

يجزم بان الرجال الذين كان لهم اكثر الفضل في توطيد دعائم ملكوت الله على الارض واتمام رسـالته ، هم قوم وضعوا نصب أعينهم الصلاة من اجل غيرهم، وكرسوا حياتهم لهذا الغرض .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات ، لا يمكننا أن نسلّم بان الصلاة من اجل الآخرين غير معقولة . فنحن عندما نتوسل لله من اجلهم ، انما نسلم أنفسنا له لنكون مجاري تسري فيها الخيرات الالهية لتشفي وتعين من نصلي لأجلهم. وتشجعنا كلمة الله واختبـار التاريخ على الايمان بان الله يستعمل دون تردد صلواتنا من اجل الآخرين . و بذلك نتيح فرصة لعمل الله العظيم من اجل خير الجنس البشري .

واذا كان ربنا قد شرح لنا قيمة الصلاة من اجل الغير في مثل صديق منتصف الليل (لوقا ص١ عد ٥-١٣) وفي غيره من الأمثال ، فانه يضرب لنا في حياته واعماله أروع الأمثلة في هذا الميدان .

وليس من السهل أن نصلي من اجل الغير . فان هذا الواجب من أصعب الامور المفروضة علينا. ونحن عندما نصلي من اجل أحبائنا يجب أن نستودعهم كلية بين يدي الله . لنفرض ان أماً ترسل ابنها للكفاح ضد أعداء الحق . انها تضرع لله لكي يحمي ولدها من الاخطار والامراض . ولكنها تسمع في يوم تغيب شمسه ان ابنها قد سقط في ساحة القتال، فهل تفقد الأم ايمانها في الصلاة. انه يبدو كأنها خيّبت أملها في ساعة الحاجة والشدة . ولكن الخيبة الحقيقية هي عدم التسليم الكلي لارادة الله . انما يجب أن نسلم احباءنا تسليما كلياً

وبين يدي الله الخالق الامين ، الذي يجعل الأشياء جميعاً تعمل لخواتيم مجيدة. وان بدا الطريق مظلماً وشاقاً ، وسواء في الحياة أو الموت ، فانه يرعى أحباءه في أمن وسلام .

ويبدو طبيعياً جداً ان نصلي من اجل أحبائنا في حالة مرضهم . ولكن هل نحن متأكدون من أن صلواتنا ستعود عليهم بالفـــائدة . يجب ان نحذر دائماً من النظر إلى الصلاة كأنها عصا سحرية يمكنها أن تبطل النظام الالهي في الطبيعة ، وانها بدون استثناء تشفي كل متألم . على أن التجارب العلمية قد أثبتت أن المرضى الذين يعرفون ان الصلوات تُرفع لاجلهم تتاح لهم فرصة للشفاء اكثر من المحرومين من هذه الوسيلة الروحية . فان الروح التي ترتفع إلى الصلاة المقدسة بالله تشعر بنوع من السلام والرضى يساعد كثيراً على التقدم في طريق الشفاء ، دون أن يعوقها تشاؤم أو مضايقة .

وهناك كثيرون يحاولون قسمة الانســان بشكل استبدادي الى جزئين، جسم وروح . ومثل هؤلاء يزعمون أن المرض يتحكم فقط في منطقة الجسم بينما تعمل الصلاة في منطقة الروح . وليس هناك ما يدعم هذا الفرض ، اذ أن الانسان ليس روحاً ولا جسداً ، ولكنه مزاج من الاثنين معا ، وكثيرون من رجال الطب في هذه الايام ينصحون أقارب المريض بان يساعدوا على على شفائه بالمثابرة على الصلاة .

ويجب أن نذكر أن ليس كل انسان يمكن أن تشفيه الصلاة ، وان تكن بركتها تشمل كل انسان . فهناك أدوار من المرض الاخير ، لا تجدي الصلاة فيها ، لان الشفاء منها لا ينسجم مع ارادة الله . ولـكن في هذه الحالة

لاتكون الصلاة عقيمة ، لانها تذيق الروح المرتحلة طعم الامجاد السماوية ، وتؤكد لاصدقائه المحزونين أن الموت هو خاتمة الفصل الاول في سفر الحياة.

سنصلّي طبعا ، لا من أجل حاجاتنا فقط وحاجات أقاربنا وأصدقائنا ، ولكن من اجل حاجات العالم. سنصلي لكي يسود العدل والحق، وينهزم الشر والباطل في العالم كله .

سنصلي لأن في الصلاة تتعظم النفس البشرية وتتمجد وظيفتها ، إذ تشترك مع الله في مهمة التسلط على العالم . ان الله لا يرغم الانسان ولكنه ينشد الصلة بأرواح بنيه . فاذا صلى الانسان كثيراً وتكلم قليلاً ، يبدأ حقاً السير في الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى البر والقداسة . فانه بفضل صلوات الجموع الكثيرة ، تنشط تلك الحركات الرائعة التي تنسق الموارد الروحية في البشرية ، وتحرك في القلوب رؤيا عالم يتحقق فيه العدل والحق — عالم يتألق فيه نور الحرية والسلام . إن الصلاة الحقيقية هي أقدر القوى على إنقاذ العالم — هي مصدر الارشاد والقيادة في كل عمل يساعد على التقدم الصحيح للانسان . وعند ما نضع أنفسنا في الصلاة تحت تأثير الله المباشر، تكمل إرادة الله . وإذا كملت إرادة الله ومقاصده ، يظهر ملكوته في ملئه ، فتصل الانسانية إلى مرمى الكمال .